رواية

علي بدر

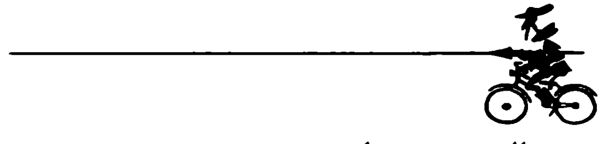
عازف الغيوم



المتوسط

المؤلف: علي بدر / عنوان الكتاب: عازف الغيوم
الطبعة الأولى: ٢٠١٦.
صورة الغلاف: سيرجي زفياشينكو / الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-99687-04-5



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

علي بدر

عازف الغيوم

المتوسط

الجزء الأول

I

اتصل نبيل مساء بوالده؛ ليخبره قراره بالفرار من البلد مع أحد المهرّبين هذا اليوم ليلاً. لم يتردّد الوالد بمحاولة إقناعه بالعدول عن هذه الفكرة الخطرة، وإنه سوف لن يجد السعادة في المنفى. وذكّره بأحد أقاربه الذي عاش في أميركا زمناً طويلاً، وأصبح تاجراً لنوع من السيارات الكلاسيكية التي تنتجها شركة بيوك الشهيرة، وبالرغم من المخاطر الكثيرة، ولا سيما بعد الاحتلال الأميركي للبلد، إلا أنه عاد؛ ليفتح محلاً لبيع منتجات إيف سان لوران، وبعض أنواع العطور الفرنسية، ثم سرعان ما أغلقه، بعد أن رأى الكساد الذي لحق بهذه البضاعة بعد الحرب. جرّب الرجل محلاً، أو محلّين، في مكانين مختلفين، لبيع الحقائب النسائية، ولا سيما من الماركات العالمية الأشهر مثل: هيرمس، لويس ڤيتون، ديور، فندي، غوتشي، بوتيغا فينيتا، برادا، سيلين، كلوي، ميلبري، مايكل كورس، وسواها من العلامات التجارية التي تغزو عالم الأنوثة منذ منتصف القرن التاسع عشر. إلا أن الأمر لم يسر كما تصوّر. وبعد أن عرف أن الناس قد عزفت كلياً عن هذه الأشياء الكمالية، عاد، وافتتح محلاً آخر، محلاً كبيراً في شارع الكرادة؛ كي يبيع فيه نوعيات غالية من السجاد الإيراني الذي يُستخدم للصلاة.

- ماذا تعني بهذا؟ قال نبيل مستفسراً من والده.

- أعني ... أعني - ببساطة شديدة - أنك لن تجد الراحة هناك ...

- لماذا تفكّر هكذا؟...

- أعرف أنك سوف تخاطر، بعدها تتعب، وتعود إلى مكانك.

- هذا لا يمكن أن يكون.

- كلهم يقولون في البداية الشيء ذاته.

- لماذا؟

- ببساطة؛ لأنك لن تجد أية حياة مناسبة هناك ....

- كيف عرفتَ؟

- كل الذين رحلوا عادوا فيما بعد ..

- عادوا... ههههه. قال نبيل متهكّماً ..

فترة صمت، ثم أعقبها والده بصوت واثق هذه المرّة:

- ... السؤال هو إذا كنتَ ستعود إلى مكانك الأول، لمَ ترحل أصلاً؟!...

- لن أعود ...

- اسمع نصيحتي!

- ما هي نصيحتك ؟

- أنتَ لن تجد أية حياة، تحلم بها هناك!

- وأين سأجدها؟... هنا؟! سأله بنبرة متهكّمة.

- هنا أنت تعرف الحال على الأقل ... أنت تعرف جيداً الناس والطبائع واللغة والحياة ...

- الحياة؟

- أجل، الحياة ...

- ماذا تعني الحياة بالنسبة لك؟... أنا لا أجد أية حياة هنا ..

- ماذا تقصد أنتَ بأنك لا تجد حياة هنا ...

- لا أستطيع إفهامك ... لكنّي بدأتُ أشكّ بأننا لنا نفس المفهوم للحياة ..

- لا أظن أننا سنختلف حتى على تعريف حياة!

- نحن نختلف!

- ماذا تقصد أنت؟

- أقصد...

- قلي ماذا تقصد..؟

- لا أقصد أي شيء! أنا راحل هذا اليوم، هذا كلّ ما في الأمر!

*

أغلق نبيل سمّاعة الهاتف مع شعور طفيف بالحزن، وعاد لجمع أغراضه المهمّة التي سيحملها معه، ولا سيما بعض الكرّاسات الخاصة بالموسيقى، وكتابين مهمّين؛ واحد عن الهارموني، وآخر كتاب شعبي عن علاقة فريق البيتلز البريطاني بفلسفة ما بعد الحداثة.

لن يفهم الأب الذي عاش فترة الستينيات والسبعينيات الذهبية طبيعة نبيل المتقلّبة أبداً. كان عمّه الذي درس فيما مضى في روسيا أيام العلاقات القوية بين العراق والاتحاد السوفيتي السابق أكثر تفهّماً له. كان شخصاً حيوياً، يُدمن شرب الفودكا، ويُدخّن السيجار، ويرتدي قبّعة أشبه بقبّعة لينين. إلا أن عمّه توفي من عامين بعد سيطرة القوى الإسلامية على البلد.

-حسناً فعل، قال نبيل.

فلا تستقيم حياة عمّه المترفة الباذخة مع النزعة المتقشّفة للقوى الإسلامية التي منعت كل شيء يتعلّق بمباهج الحياة.

- من أين سيأتي بالفودكا؟! من أين سيأتي بالسيجار؟! وأين سيجد الكافيار؟

ومع أن عمّه مات بالسرطان، إلا أن نبيل عدّ موته نوعاً من الاحتجاج الصامت على وجود هذه المخلوقات التي تريد تطبيق الشريعة على الناس - هنا - بالقوة.

*

جمع نبيل جميع حاجياته المهمّة التي يرغب بأخذها معه في حقيبة صغيرة. وهي ليست كثيرة، على أية حال. لكنّ نوطات الموسيقى كانت في المقدّمة. ثم استلقى على الأريكة في صالون شقته، بانتظار رنّة الهاتف من المهرّب. بعد دقائق، شعر أنه جائع، فنهض من مكانه، وأخرج قطعة بيتزا مارغريتا من الثلاجة، وصبّ لنفسه كأساً من الكوكا كولا. سار خطوات، وضع صحن البيتزا في الفرن، وذهب نحو الطاولة. جلس بانتظار أن تسخن قطعة البيتزا، وأخذ يفكّر بما قاله له والده عن مساوئ المنفى، وحكاية أحد أقاربه الذي عاد من أميركا، وأخذ ينصح الآخرين بعدم ترك البلد، والذهاب إلى الغرب.

هذه الحكاية ذكّرته بموعظة صغيرة، أطلقها الشاعر الفارسي صائب التبريزي الذي عاش في القرن السادس عشر لأحد أصدقائه:

قال له إن حماراً كان يُضرَب، ويُهان، من قِبل صاحبه في قرية، اعتادت على إهانة وكراهية الحمير، وفي يوم، هرب هذا الحمار إلى قرية مجاورة، وقد اندهش من أن هذه القرية على العكس من قريته، فهي تُبجّل الحمير. فعاش هناك زمناً طويلاً فيها من الاحترام والطعام حتى نسي جميع الإهانات التي وُجّهت له في قريته السابقة، إلا أنه - وفي يوم - شدّه الحنين إلى القرية السابقة؛ ليزورها، فخرج من هذه القرية إلى قريته، وفي الطريق، شاهد أحد الحمير من أصدقائه في القرية السابقة هارباً، وهو يتلفّت من الخوف. فناداه:

- ماذا تفعل؟

قال له الحمار الآخر: والله، قررتُ الهروب من هذه القرية التي تهين الحمير، لقد شبعتُ من الذّلّ والإهانة والتعذيب، وأريد أيّ مكان سوى هذا المكان.

فقال له، وهو حزين جداً:

- أرجوك، اسمع نصيحتي، عد إلى قريتك، فإنك لن تشعر بأنك حمار إلا فيها!

II

رن جرس الفرن. نهض نبيل، أخرج قطعة البيتزا، ووضعها في صحن. كانت الجبنة قد شُويت، وفاحت رائحتها. وضع الصحن على الطاولة، وأخذ يلتهمها ساخنة دون أن يستخدم الشوكة والسّكّين، فهو يحبّ أن تتحسّس أصابعه سخونة الطعام في أثناء التهامه.

ما إن أنهى نبيل طبق البتزا، حتى أدار التلفزيون على قناة إباحية؛ ليتخلّص من ملل الانتظار. فالقنوات الإباحية هي الشيء الوحيد المتاح بهذا البلد، وهنالك دكان في ركن الشارع، فيه تقنيّ، يمكنه أن يفكّ تشفير أية قناة، بمبلغ قليل من المال. وأكثر روّاده من الإسلاميين، فقد أصدروا فتوى أن التّطلّع على غير المسلمات حلال!

كان قد قلب بالرموت كونترول مجموعة من القنوات الإباحية المتاحة ذلك الوقت في جهازه؛ كي يستقر على واحدة. أخيراً استقرّ على محطة، تعرض أفلام الجنس في المناظر الخارجية، أو الجنس في الهواء الطلق. كان غالباً ما يستقرّ عليها في أثناء بحثه وتقليبه في القنوات، ولكنّه لاحظ أن الفيلم هذه المرّة - ربما - هو من أجمل الأفلام.

ظهر شابّ وسيم أسمر قليلاً، بلحية خفيفة، أشبه بعربي، مصري ربما. جسمه رياضي بعض الشيء، له عضلات قوية، وصدر عريض، وأفخاذ صلبة، مع فتاة شقراء جميلة، أوربية حتماً، لها سيقان طويلة، لها صدر كبير مع بطن ضامرة، ومؤخّرة مدوّرة بصورة ناعمة، كانا - في البداية - يعومان في البحر، وهما يضحكان. ثم خرجت الفتاة من الماء راكضة ضاحكة، ثم ارتمت

على الأريكة المنصوبة تحت شمسية ملوّنة كبيرة، بعدها خرج الشاب راكضاً وراءها، ثم ارتمى فوقها، وأخذ يقبّلها من عنقها، وهو يتحسّس صدرها وفخذيها.

لقد سحر نبيل هذا الاستسلام للكامل للفتاة، وهي تخلع كالسونها وستيانها بتمهّل لذيذ، كان البلاج الذي يظهر في الخلفية جميلاً جداً، تنيره أشعة شمس ذهبية ساطعة: إنه جنس في الهواء الطلق. شاطئ رملي، وشمسية منصوبة، وقنينة نبيذ وكؤوس، بينما أمواج البحر تتكسّر على الرمل.

كان نبيل قد انغمر - تماماً - في المشهد، فهذا النوع هو ما يحبّه حقاً من أفلام البورنو، وقد شعر بالحرية الكبيرة في هذا المقطع الذي أخذ يتصاعد شيئاً فشيئاً؛ حيث كان جسد المرأة المبلّل يلمع تحت أشعّة الشمس، وقد علقت بعض حبّات الرمل في شعر عانتها الشقراء المائلة إلى الحمرة. لقد مدّ نبيل رأسه، كما لو كان يريد أن يكون داخل الجهاز، لحظات، وقد انقطع نفسه، وجفّ فمه. كان يراقب الرجل الذي يطوّق جسد صديقته، ويغيّر الأوضاع، على موسيقى قوية، ولكنّها غامضة.

لم يكن الأمر قد استغرق طويلاً، قبل انتهاء المشهد، رن جرس الموبايل، وقد طلب منه المهرّب الهبوط، فهو بانتظاره في السيارة بالأسفل.

- أوف، هذا وقتك. قال نبيل في نفسه. متحسّراً على عدم رؤيته نهاية لهذا المشهد. ثم أقنع نفسه أن جميع أفلام البورنو تنتهي نهاية واحدة. فالجنس - على الدوام، ومنذ وجوده على الأرض - يحتوي على الحركات ذاتها، والأصوات ذاتها، والنهاية ذاتها. ما يختلف - ربما - في هذا المشهد هو المكان:

البحر، الشمس، الحرية، والمكان الطلق.

III

ابتهج نبيل، وارتبك في الوقت ذاته لرحيله عن هذا المكان. حمل حقيبته. أطفأ التلفزيون. التفت مُلقياً نظرة أخيرة على شقته، وهبط سريعاً إلى الأسفل. كانت السيارة في الباب بانتظاره، وهي من نوع هوندا من الموديلات القديمة، لا يعرف - بالضبط - أي نوع، ولكنْ؛ ربما يعود إلى السبعينيات، وقد كان لجدّه واحدة منها، كما تظهر في ألبومات صور العائلة.

اقترب من السيارة، لونها أزرق، وعليها آثار تصليح لاصطدامها من الجهة اليمنى. جلس على الكرسي إلى جنب السائق.

- مرحباً! قال نبيل دون أن ينظر إلى السائق، ثم انشغل بغلق الباب، وبعد أن ربط حزام الأمان، نظر أمامه منتظراً انطلاق السيارة.

- مرحباً! قال السائق، وقد بقي مركّزاً نظره بفضول على نبيل للحظات.

- هل رأيتك من قبل في مكان ما؟ سأل السائق نبيل بصوت خفيض قبل أن ينطلق بسيارته.

- لا أعرف ... قال نبيل بسرعة، ثم التفت للسائق، وسأله:

- أين تسكن؟

- هنا في الجوار ...

- إذنْ؛ لا بد أنك رأيتني في الحي.

- آه، صحيح!

لقد تعوّد نبيل على هذا المنطق في هذا الحي منذ أن سكنه. مثلاً، أن يسألك جارك ببلاهة مطلقة:

- أين رأيتكَ، فيما مضى؟

فأنت تقول له:

- في الحي!

يجيبك:

- آه، صحيح، نحن جيران! دون أن يشعر بالغباء، بسبب ذلك مطلقاً.

*

فكّر نبيل، وهو جالس جنب السائق أن الكلام عند الناس هو من أجل الكلام، فقد يسألك أحد سؤالاً من دون أن يعير لجوابك أيّ انتباه، فهو لا يهتمّ مطلقاً بفحوى كلامك! قال نبيل مرّة لوالده:

«إن الناس هنا تريد أن تتكلم عن أي شيء، وبأي كلام، ولا سيما بعد الحرب، تريد أن تطحن الكلام طحناً، هل توافقني؟ إن بضاعة الكلام الفاسد هو التجارة المتداولة هنا بصورة غير مسبوقة مطلقاً. إنه الشيء الوحيد الذي لا يعجزون عنه، ولا يملّون منه، حتى لو أعادوه معك ألف مرّة».

ضحك والده الذي يستسخف ما يقوله نبيل دائماً، ويعدّ ابنه مبالغاً على الدوام في النظر إلى، أو تقييم عادات الناس.

«صدّقني، ليس غريباً أن يسألك شخص مثلاً كلما رآك، أين رأيتكَ قبل الآن؟

تقول له:

- أنا أسكن هنا جنب بيتك!

يجيبك:

- آه، قلت لي ذلك مرّة!

ولكنّك - في الحقيقة - قلتها له ألف مرّة».

*

مسح نبيل بنظره السائق الجالس إلى يساره من الأعلى الأسفل. كان الأخير في السّتّين من عمره، ذا سحنة ريفية، بشعر أبيض، وشوارب سوداء قاتمة، كأنها صُبغت بصبغ أحذية. وهو الصبغ الذي يصبغه الفقراء عادة. يرتدي بنطلوناً صناعة صينية رخيصة، وقميصاً، موضة محلّيّة لشخص أصغر من عمره لتلك الأيام، بكثير. كان الشكل يذكّر بممثل أفلام مصرية، يعمل بوصطجي على الدوام، حاول تذكّر اسمه، لكنّه لم يفلح، ففضّل أن يجلس إلى جواره دون أن يعيره انتباهاً.

ما إن انطلقت السيارة في الشارع حتى تساءل نبيل بقلق في نفسه: إن كان هذا هو المهرّب الذي سيوصله إلى أوربا، وهو أشبه ببوصطجي منه إلى مهرّب، وإن كان يودّ أن ينجز مهمّته بهذه السيارة القديمة التي تشبه سيارة محل توصيل البيتزا؟

ألقى آخر نظرة على الحيّ:

عمود الكهرباء في الركن، وبيتان كانا جميلين فيما مضى، وأصبحا شبه متداعيين، ودكان امرأة عجوز مسيحية مغلق بعد سفرها، والتحاقها بأهلها في ديترويت. أما العمارة التي يقطنها هو؛ فهي الوحيدة المضاءة بمولّدة كهربائية صغيرة، ذلك لأن الحيّ معتم لانطفاء الكهرباء فيه.

IV

شعر نبيل، وهو جالس في سيارة المهرّب بالارتياح لمفارقته هذا الحيّ الذي أهانه، وأذلّه. فنبيل عازف تشيللو، درس هذه الآلة في مدرسة الموسيقى والبالية في المنصور، وعمل في الفرقة السمفونية الوطنية كعازف للموسيقى الكلاسيكية.

أن تكون عازفاً لموسيقى كلاسيكية في الشرق الأوسط مهنة ليست سهلة أبداً.

قال نبيل مرّة لأستاذته في الموسيقى:

- إنه ليس شيئاً صعباً، وحسب، بل هو تراجيدي وكوميدي وفظيع، مثلما أن تأتي بالضبط بحيوان يعيش طوال حياته في القطب، وتنقليه إلى منطقة، تصل حرارتها في الصيف إلى الأربعين.

في البداية، كان نبيل يعتقد أن الأمر سهل، أمر يمكن تدبّره وتسييره حسب المزاج؛ لأنه يتعلّق بالإرادة، بإرادته الشخصية هو، على أية حال. أو بالأحرى بإرادته الموسيقية، بل ومن خلال هذه الإرادة بين قوسين، يمكنه أن يفرض ما يراه مناسباً على الآخرين. كان يعتقد - فيما مضى - أنه يمكنه - من خلال الموسيقى - أن يغيّر الحياة. أن يجعل لحياة الناس التافهة معنى، أن يحوّل الحياة من عدم إلى مسرح كبير، إلى نزل ثري.

- أليست لي إرادة؟

قال ذلك مرّة لأمه، وهي منشغلة في حياكة بلوفر له. فلم يعد يرتدي

الملابس الموجودة في السوق، الملابس ذات النوعية الرديئة والألوان الفاقعة، التي يستوردها تجار حمقى، تكاثروا مثل الفطر بعد الحرب، يستوردونها بصورة رئيسة من الصين وتركيا.

- اسمعي .. أنا يمكنني أن أغيّر شروط الحياة المحيطة بي!

- ههه! قالت له أمه ساخرة، دون أن ترفع رأسها عن سنارة الحياكة المغروزة في الصوف.

- لو أعطيتك هذه الآلة الموسيقية، وأنت لا تعرفين العزف عليها، ستخرج الأصوات مبهمة، ولكنْ؛ بعد الجهد والتدرّب عليها، ستظهر منها معان عظيمة.

- الناس ليسوا آلة ... قالت أمه دون أن تعير ردّة فعله أيّ انتباه.

أخذ يسير في الحجرة جيئة وذهاباً.

كان نبيل يعتقد أن بالإرادة التي عنده، والتي يمكنه - من خلالها - السيطرة على الآلة الموسيقية؛ كي يحوّل الأصوات المبهمة إلى معان، إلى إيحاءات، أن يغيّر العالم. إنه يمكنه - عبر الموسيقى - أن يصل إلى الجوهر الأساسي للحياة، يمكنه - عبر الأصوات - أن يتواصل مع الناس من كل الطبقات. من خلال هذه الأصوات، يمكنه أن يزيح عن أرواحهم هذا السقط الفحمي، أن يجلي التراكمات عن المعاني المخبوءة، أن يؤثّر في الناس. هكذا كانت تبدو له الحياة!

غير أنه - فجأة - وجد نفسه عاجزاً، غير قادر أن يحلّ الموسيقى محلّ اللغة القديمة، غير قادر أن يحلّ الموسيقى محلّ اللغة المبتذلة المستخدمة. فالموسيقى لا مكان لها وسط الأصوات العالية وجلبة اللكنات الشعبية المستخدمة في الشارع.

- آه، ماذا أصنع؟ وضع يده اليمنى على جبهته، وسقط على الأريكة يائساً.

فالناس ليسوا آلة، كما قالت له أمه، يمكنه أن يغيّرهم ويتلاعب بهم. الأمر أكثر تعقيداً من النظرية التي كوّنها هو عن الحياة والموسيقى.

*

أول ما واجهه نبيل في الحي اعتراض الجيران. فقد فوجئ يوماً بعدد من أهل الحي الذين تجمّعوا أمام العمارة، طالبين منه أن يكفّ عن إزعاجهم بهذه الموسيقى، فهم لا يستطيعون النوم من هذا الصوت الغبي.

لقد صُدم نبيل بهذه الواقعة، ذلك أنه تساءل عن كمية الأصوات وأنواعها التي تأتيهم كل يوم، ومن كل مكان، في هذا الحي الحقير الذي كان حياً راقياً، وسرعان ما اجتاحته الطبقة الرثّة، بعد الحرب:

أصوات منبّهات السيارات، أصوت المطربين الشعبيين من المسجّلات التي يحملها المراهقون، ويدورون بها في الشوارع، مطارق ثلاثة حدّادين في السوق، صراخ العتّالين في الطريق، إطلاق العيارات النارية لأتفه الأسباب، صراخ الأطفال وزعيقهم في الشارع.

كلّ هذا لا يزعجهم، ما يزعجهم - فقط - هو صوت التشيللو، وهو يعزف كونشرتو ضوء القمر لبيتهوفن!

- ماذا أفعل لكم؟ قال في البداية أمام جمهرة النساء والرجال المتجمّعين أمام باب العمارة، وكانوا يتكلّمون كلهم في وقت واحد.

- ماذا تفعل لنا؟ قلنا لك أن تتوقّف عن هذا الهراء الذي تُسمعنا إياه كل يوم رغماً عنا.

- كيف؟ ماذا تقولون؟ قال محتجاً ويائساً.

- لا نريد أن نسمع صوت هذه الآلة الكريهة.

لم يعد له أيّ متّكئ، يتّكئ عليه في هذه المحاجة الفاقدة للتناسب، خمسة عشر شخصاً يتكلمون في وقت واحد.

- هذه مهنتي ...

آخر خيط يمكن لنبيل أن يتعلّق به أمام هذه الجمهور الذي حين يتكلّم يفتح كل فمه، ويخرج كل الحروف الحلقية مرّة واحدة.

- مهنة قذرة ... ثم إنها حرام ... الموسيقى حرام، ألم تسمع شيخ الجامع؟!

- اتركوني، أنا وربي ... هو الذي يعرف إن كانت حراماً أم لا! ما شأنكم مني؟

- لا شأن لنا بك ... ولكنّك تزعجنا ولا نريدك أن تُسمعنا الحرام غصباً عنا.

- ماذا أفعل؟ أين أعزف؟! في التواليت؟!

- لم لا؟! ... إنه أنسب مكان لآلتك الخرائية ...

قال له الأصلع الذي كان نشالاً فيما مضى، وأصبح رجل دين.

*

أغلق نبيل الباب، ودخل المنزل غاضباً ويائساً. حاول الجلوس إلا أنه لم يستطع، توقف. أخذ يسير في الحجرة ذهاباً وإياباً. كان يرقب بألم وغضب تحوّل البلاد إلى فوضى مريعة. ليس بدءاً من هذا اليوم، ولكنْ؛ منذ زمن بعيد. كان صامتاً، ولكنْ؛ في داخله صراخ أخرس. غضب ينمو، مثل شجرة تنمو في حقل ممنوع، لم تعد الكلمات تخرج من فمه مثل بارود يخرج من الفوهة، كما في الماضي. لم يعد يعرف ماذا يقول. في داخله أشياء، لا يتمكن بعد من قولها، فذاك لأن الكلام، لا يعطى اليوم، في الحياة، الا للمجانين والمعتوهين. أما الفنانون؛ فيطلب منهم بأدب أن يتركوا أجسادهم معلّقة على المشجب. عليه ألا يعترض على أصغر أحمق في الشارع. ألا يلبل حياة الناس، بالملابس الأنيقة، أو تبادل الإشارات الجميلة.

- كل شيء جميل ورقيق يكرهه الناس هذه الأيام.

هكذا كان يفكّر، وهو يسير في الشارع، كان يعتقد أن الناس تريده أن يفعل ما يريدونه هم، حتى لو حكّه جلده، عليه أن يحكه بأظافر المجموعة التي يكمن بينها نوع من التعايش التواطئي، مجموعة تتبادل إشارات ثقافية بينها، أما هو وآلته الموسيقية؛ فخارج السياق. الكل يرغب في أن يراه مَخفياً، لا يخرج هو وآلته للعلن؛ لأنه - ببساطة - يخرب المشهد؛ لأنه يكسر السياق. من جهة أخرى، سيدعو له المؤمنون أن يشفى من المرض الخاص الذي يحمله: الموسيقى.

- آه ... قال نبيل، وهو يضع يده على جبينه، ويجلس على الأريكة.

إنهم هم أصحاب السلطة، الجهلة هم أصحاب السلطة، سواء أكانت دينية، اجتماعية، سياسية، وكلهم يريدون تطويعه، ثنيه، العمل على إخضاعه.

لقد شعر نبيل أنهم يقومون بتدريبه كل يوم على ترهات، تحدث له في الشارع، يدرّبونه حتى اللهاث، والكل يريد تمرينه على التحدّث بفمهم.

- آه، لو أن الناس تتكلّم بالموسيقى، لا بالفم ... أي بلغة من دون فم.

٧

كان نبيل ينظر من نافذة السيارة، وهي تغادر الحي. شعر برغبة متزايدة، بزخم كبير أن يترك هذه المدينة التي عاش فيها حياته؛ حيث بيت العائلة، الأصدقاء، الحبيبة الأولى، وهذه من مجموعة الكليشيهيات واللازمات الثابتة التي يتكلم عنها أكثر الذين يعرفهم تقريباً.

- أوه، لا يمكنني أن أغادر بلدي، كيف يمكنني أن أعيش في مكان آخر؟!

أو من قبيل:

- إن بلدي على مساوئه لا يمكن مقارنته بأكبر جنة على الأرض!.

هراء! وكان نبيل فيما مضى متشرّباً، لا يعرف كيف، بهذا الإيحاء، أي إيحاء أنه لا يمكنه العيش من دون بلده. وكان يفكّر على شاكلة كل الناس غير المجرّبين أن سماء وهواء وجمال مدينته أمور، لا جدال فيها. ولكنّ هذا الأمر هو أمر أحمق تماماً. بل أخذ يسخر من هذه الفكرة، ويتخلّى عنها كلياً. لقد شعر أنه - فيما مضى - كان متورطاً بمجموعة من الأفكار الجامدة عن الحياة، عن المدينة، عن المهامّ، عن الواجبات، عن الذكريات، وعن صعود العواطف، وهبوطها. كما لو أن عالم العلاقات يخضع للقوانين المؤكدة نفسها التي تجعل هذه المدينة جميلة، وهذا البحر رائعاً.

أما الآن؛ فلا بل بالعكس، لقد شعر أن هنالك نوعاً من التوافق الغامض، يسري به للذهاب إلى مدينة بعيدة، ويجعله يعدّل موقفه من هذا المكان الذي عاش فيه عمره. ثم إن الحياة نفسها مهدّدة بالهرم، فلا

شيء ثابت على هذه الأرض، ولم يعد بمقدوره العودة إلى النقطة صفر. لقد انطلقت السيارة، ولا عودة له إلى هذا البلد.

وأخذ يعدّد الصروح التي انتهت من حياته، أو تلك المهدّدة بالهرم ...

لم يعد له أصدقاء. لم تعد هنالك بارات، كما كانت. اختفت البيرة. ما عاد له أي مستقبل كعازف تشيللو في هذا البلد، بل حتى علاقته بأبويه شعر أنها لم تكن سوى علاقات شكلية، بلا جوهر، بلا حياة، بلا محتوى، بلا عاطفة، لم تكن سوى طقوس، والكلمات اللازمة التي يردّدها كلما رآهم هي نفسها التي يردّدها أيّ مهلوس، كما لو أنه أخذ كمية كافية من المخدرات، تجعله يهلوس بصورة انسيابية عن الحب العائلي والعاطفة الصادقة.

علاقاته مع الجميع كانت تصنّعات. لم تكن لها أية صلة بالحقيقة. كانت تمثيلاً أخرق في مسرحية بائسة. كانت تمثيلاً لنص ثقيل، بلا أصداء، يُدار في صمت كثيف وأسود. بل كانت كلاما فارغاً في ظلمة خرساء لمسرح فارغ.

لقد أعجبه التعبير الأخير، فابتسم له.

*

نظر نبيل من نافذة سيارة المهرّب إلى الحي، وهو يغادره نهائياً، وللمرّة الأخيرة، وقبل أن يغيب عن ناظره، تنفّس بعمق، وأطلق حسرة، وهو يقول:

- آه، من الطبقة الرثّة!

كان نبيل يفكّر مع نفسه، ولكنْ؛ ليس بسلام أبداً، إنما بألم وحنق. وهو يستخدم هذا التعبير:

«الطبقة الرثّة»!

كان يستخدم هذا التعبير على الدوام في عرض مشكلته مع العالم

الخارجي. وكان لا يني أن يؤكد أن ماركس استخدمه في كتابه عن «الأيديولوجية الألمانية» لئلا يُتَّهم بالتعالي الطبقي. ومع أن المثقّفين كانوا يستخدمونه بنفاجٍ عالٍ في بغداد، لتوصيف الغوغاء، وسكنة بيوت الصفيح، والمشرّدين، والشحّاذين، واللصوص، والذين اجتاحوا المناطق الراقية في الفترة الأخيرة.

أما نبيل؛ فيتقدم أكثر في استخدامه مادة للهجاء، ذلك أن ماركس ذاته قد هجا الطبقة الرثّة، بسبب تلوّنهم وخياناتهم في أثناء التحوّلات السياسية الكبرى. وهكذا هم - أيضاً - بالنسبة لنبيل:

«فبعد أن كانوا مليشيات لصدام في الماضي تحوّلوا إلى مليشيات دينية».

ما أكثر الإهانات التي وُجّهت لنبيل من الطبقة الرثّة، آخرها هي الأشدّ قسوة. حين قبضت عليه مجموعة إسلامية، وهو عائد إلى منزله، يحمل في يده آلة التشيللو الموضوعة داخل حقيبة سوداء كبيرة. أوقفوه عند عمود الكهرباء، وهو عائد بعد ظهيرة يوم قائظ. كان متعرّقاً ومتعباً، ويودّ الوصول بأقصى سرعة للبيت، وتناول قنينة ماء بارد من الثلاجة، وشربها.

كان قائد المجموعة هو الأصغر سنّاً، له وجه أمرد، أشبه بمؤخرة معزة. سأله ما هذه التي في يده:

- تشيللو!

- آه ... ماذا يعني؟

- آلة موسيقية!

- آه، آلة موسيقية وغربية أيضاً؟

- موسيقى عالمية!

- أنت تريد أن تعطيني درساً؟

- لا.. ولكنْ ..

- ألا تعرف أن التشبّه بالكفّار كفر، وأن الموسيقى في الإسلام حرام؟

قبل أن ينطق نبيل بأية كلمة، انهال الأوباش المسلحون على آلته. قطعوا أوتارها، ضربوها على الأرض، ركلوها بأقدامهم حتى حطّموها تماماً، وهم يضحكون. كان نبيل ينظر صامتاً إلى المشهد الذي أمامه، بينما سكان الحي الذين تجمّعوا أخذوا يشاركون المسلحين الضحك والسخرية. فتقدم قائد المجموعة من نبيل، ومسكه من ربطة عنقه، وضربه بالكفّ. صفعه، فطارت النظّارة ذات الإطار الذهبي في الهواء، وسقطت على الرصيف، مع عاصفة من الضحك. صفعه مرّة أخرى على وجهه من الجهة الأخرى، أربكت نبيل، وسقط على الأرض، وما إن نهض حتى أخذ قائد المجموعة نبيل من قميصه الأبيض من ماركة رالف رولون، والذي يحبّه نبيل جداً، وأخذ يمزّقه بحقد وغضب، كما لو كانت له عداوة مع هذه النوعية من القمصان، أو مع اللون الأبيض. وكان الحي بأجمعه تقريباً غارقاً بالضحك.

*

شعر نبيل بالإذلال والإهانة بشكل فظيع. صعد إلى شقته، وهو يلهث. ذهب إلى الثلاجة، تناول قنينة ماء باردة، وشربها كاملة. استدار نحو المرآة على المغسلة، وأخذ يتطلّع إلى وجهه، وآثار الصفعات عليه. خلع قميصه الممزّق، ورماه على الكرسي. ثم ذهب؛ لينظر من الشباك لمصير آلته، فوجدها قطعاً متناثرة بيد الأطفال، يحملون أجزاء منها، وهم يركضون، أو يقلّدون العزف عليها، وهم يضحكون.

جلس على الأريكة.

الشيء الأهم هو كيف يمشي في هذا الشارع بعد الإهانة التي واجهها؟

لقد كان - فيما مضى - مكروهاً في الحي، ولكنّه محترم؛ إذ ينظره السكان باحترام، ويعرفون أهمّيّته. شخص صامت، يرتدي نظّارة طبية - دليل على ذكائه -، ملابس كلاسيكية أنيقة، له وجه غامض، لا يشبه عامة الناس في

الحي، وآلة موسيقية غريبة، يمشي باستقامة وثبات. وبرنامجه اليومي واضح، فهو يخرج كل يوم صباحاً، ويعود مساءً.

السؤال الذي طرحه نبيل على نفسه تلك اللحظة هو:

بعد صفعه، وإهانته، وكسر آلته، ومحو هيبته، كيف سينظر الناس إليه؟! وكيف ينظر هو في وجوههم؟! الأمر صعب للغاية. هكذا حدّث نفسه. فما حدث له اليوم كان فظيعاً، كان فظيعاً حقاً، لقد شعر بالانسحاق تماماً، شعر بأن بشريته قد مُحقت بشكل كلي. كما لو أنهم مسخوه من بَشر إلى ممسحة لبلاط الأرضية.

وهذا الحادث قد ذكّر نبيل بما حدث مرّة لأحد أساتذته في الابتدائية، اسمه الأستاذ جمال، وقد كان شخصاً وقوراً صامتاً، طويل القامة، يرتدي بذلات أنيقة ومهيبة. في الغالب، يضع على رأسه قبّعة، ويحمل حقيبة جلدية. إذا مرّ، فكل طلاب المدرسة تصمت لرؤيته. كان الأكثر احتراماً على الإطلاق، بسبب جلال وقاره. وفي يوم مرّ في الطريق المقابل للمدرسة، وكان جميع الطلاب قد خرجوا توّاً، وتوقفوا أمام البوابة الكبيرة، وإذا بكلب من دون الجميع هجم عليه بشراسة، فصرخ المعلم بصوتٍ عالٍ، وأطلق ساقيه للريح. فركض الكلب وراءه، طارت قبّعته وأفلت حقيبته من الخوف، بينما اشتعلت عاصفة من الضحك الشيطاني للطلاب، بسبب هذا المشهد. هنا سقط وقاره تماماً، كما سقطت هيبته. لم يعد يحترمه أحد. لقد أخذ الطلاب يتمرّدون عليه، ويسخرون منه.

تساءل نبيل في نفسه: كيف سيسير في الشارع بعد هذه الإهانة؟! كيف سينظر في عيون الناس؟! وكيف سينظرونه؟

أدار الرموت كونترول على قناة إباحية، وتمدّد على الأريكة.

*

في اليوم التالي، لم يستطع نبيل التركيز على أمر واحد. كان ذهنه

مشتّتاً، أفكاره في الصباح ضاجّة، مزدحمة. جسده متعب، مرتبك، أشبه بالهلوسة التي تغزوه من وقت إلى وقت. لا يعرف ماذا يصنع. لا يعرف كيف يتخلّص من هذا الغضب. فقد كان غاضباً أكثر مما هو حزين، كان متوتراً أكثر مما هو كئيب. لم يكن يشعر بالشفقة على نفسه، أبداً أبداً، كان يشعر بالغضب فقط.

حينما استبد وتمكن العجز منه تماماً، أخذ يصدر أصواتاً غريبة، وهو راقد في السرير، أخذ يشدّ قبضته بقوة، ويرخيها. أخذت تنفلت منه شتائم غير مفهومة، شتائم مكرورة بلهاء، لكنّها أشعرته بالغضب من نفسه، كان يريد أن يشيد لنفسه لغة جديدة؛ كي يشتمهم بها، بل أراد أن يستدعي اللغات جميعها، اللغات التي لا يعرفها من قبل؛ كي يشتمهم بها. استدعى لغات أجنبية من رأسه، أراد أن يستخدمها مثل حيوان:

فك أوف، ميرد، فيس دو بوتان، صك ... ولكنْ؛ لا فائدة.

ماذا يصنع؟

لقد تخلّى عنه رأسه. تخلّى عقله عن وجوده.

- الموسيقى هي سيدة الأشياء. قال في نفسه! يمكنه من خلال أصواتها تسمية أي شيء يخطر في باله. بل يمكنه - من خلال تناغمها - أن يمضي مباشرة إلى الحياة المحيطة به، أن يهبط إلى قعر الحياة، إلى نسغها الأول، وأن يرى ما يكمن في أسفلها. لا توجد أشياء لا يمكن تسميتها عبر الموسيقى، بينما شعر بالعجز - تماماً عبر اللغة العربية التي يتكلّمها - من أن يفهم الأشياء الكثيرة التي أخذت تتوالد من الفوضى، أشياء كثيرة أخذت تنمو دون أن يملك أية كلمات كافية للدلالة عليها.

لقد امتنع عن الكلام. أراد - وهو في سريره - أن يتوقف عن أي فعل آخر. كان أشبه بالمشلول. لقد شعر - بعد إهانته - بالعجز عن الرد، بل

أصبحت كل الأشياء المواجهة له فاقدة للدلالة. العالم الذي حوله كتلة هامدة دون ذكاء، دون تصوّر، دون فعل ممكن. أصبح العالم غير مفهوم له. لقد امتنع عن تسميته، عن الإمساك به. لم يعد يفرّق بين كائن حيّ وجماد! بين حيوان وحجر!

مادام أنه لم يكن قادراً على إبداء أيّ ردّ فعل أمامهم ليلة أمس، بل لم يكن باستطاعته حتى مواجهتهم، لذلك شعر أن من حقّه أن يردّ عليهم، وهو راقد في سريره.

*

بقي نبيل في سريره حتى الصباح دون أيّ تفكير. وشيئاً فشيئاً، أخذ يستردّ تفكيره. لكنّ التفكير بهذا الأمر أدخله في حالة حزن غريب. وهو لا يحبّ أن يرقد حزيناً بائساً في فراشه. السؤال الأول الذي طرحه على نفسه:

- ماذا يصنع الآن، وهو في الفراش؟

إن الطريقة الوحيدة التي يستردّ فيها كرامته، هو أنه يهينهم في خياله.

فقد أعاد رسم المشهد في ذهنه، وتخيّله على نحو مختلف تماماً، بدلاً من ضربه، وشرشحته، قام هو بضربهم، وشرشحتهم:

تخيّل - في البداية - أن في داخله قوة ماحقة، قوة تأتيه من مكان ما في الطبيعة. قوة تأتيه من بعيد، لا يعرف مصدرها. فحين تقدّموا نحوه، لم يرتعش خوفاً منهم، إنما هم الذين ارتعشوا خوفاً منه. تقدّم نحوهم بهدوء رائع، بهدوء مدهش، ومع أول ضربة، أصبحوا مثل ممسحة الأرضية بين يديه. هكذا فقد ارتعدوا أمامه، فأخذ أسلحتهم من أيديهم، وحطمها بسرعة فائقة، رماها على الأرض، فتناولها الأطفال، أخذوا مزقها، وركضوا؛ ليلهوا بها، كما فعلوا مع آلته الموسيقية، بل راح، ومزّق لهم ملابسهم، مثلما مزّقوا له قميصه الرالف رولون. بعدها أخذ يصفعهم صفعات متكررة

دون أن يردّ أيّ واحد منهم عليه. لقد كانوا يتوسّلون به، بينما أهل الحي يضحكون، ويسخرون منهم.

*

نهض من سريره. شعر بشيء من الفرح، ذلك أن ضربهم وشرشحتهم في خياله كانت عقاراً مهدّئاً حقاً. أمدّته بشيء من الراحة، بشيء من النسيان، قدّمت له فقدان ذاكرة مؤقّتاً لما حدث له ليلة أمس على يد المسلحين.

نهض مسرعاً، وارتدى ملابسه، لكنْ؛ حينما أراد الخروج من المنزل، تردّد أيضاً.

لم يكن يريد أيّ شخص من الحي أن يراه مجدّداً. كان خجلاً مما حدث له. شاعراً بالإهانة أمام هذه العصابة التي أهانته، وأذلّته.

نظر من البالكونة، رأى الشارع خالياً. غادر بسرعة. لم يصادفه أحد. لكنْ؛ عند عودته في الظهيرة، واجه المجموعة الإسلامية المسلحة ذاتها في الطريق، فاضطربت قدماه، وحين اقترب منهم، ابتسم له قائد المجموعة، وطلب منه التوقف بأدب. فتوقف نبيل، وقلبه يخفق بقوة. قال لنبيل:

- أنت الذي أدّبناك بالأمس، أليس كذلك؟

- مالك، لا تتكلم؟

قال قائد المجموعة، وهو يسير أمامه بتبختر جيئة وذهاباً.

- أنت أخرس؟

ارتجف نبيل، وقال بصوت واطئ:

- ماذا تريدني أن أقول؟

- قل أيّ شيء يعجبك.

- لا شيء ... ليس لديّ ما أقوله.

- لا يمكننا أن نتركك من دون أن تقول كلمة.

غرق المسلحون الذين حوّطوه بالضحك. كانوا خمسة أشخاص، أعمارهم في العشرين. يرتدون ملابس غريبة، أشبه بملابس المسلسلات التلفزيونية الدينية، التي تُصوِّر المسلمين قبل ١٤٠٠ عاماً، وكانت لحاهم طويلة، بينما يقبض كل واحد منهم على بندقية كلاشنكوف، ويضع دوبل مخازن رصاص مربوطة بالسكوتش، وبالقرب منهم، سيارة تويوتا دفع رباعي حديثة.

- لا تقل إنك متضايق منا! قال له رئيس المسلحين.

- لا، أبداً ... بل بالعكس سعيد.

- إذنْ؛ أنت لست منزعجاً منا .. أليس كذلك؟!.

- لا، لست منزعجاً! ولماذا أنزعج؟!.

قالها نبيل وعلامات الانزعاج بادية عليه، بل لا تفارق وجهه.

- بسبب ما فعلناه بك الأمس، ولكنّ هذا لصالحك أيضاً، لقد خلّصناك من غضب الربّ.

- شكراً، والآن دعوني أذهب إلى منزلي.

- سندعك تذهب إلى منزلك، ولكنْ؛ لدينا شيء آخر معك.

- ما هو؟ قال نبيل مستغرباً.

- اسمع! نحن سامحناك، بسبب انتهاكك لقواعد الإسلام ...

- أشكركم على ذلك.

- نعم، عليك أن تعرف أن الموسيقى حرام، وقد سامحناك على الفترة الماضية، كنتَ جاهلاً، وأدّبناكَ، وعلّمناكَ. ولكنْ؛ الآن نريد منك كفّارة؛ كي يسامحك الله على فعلتكَ هذه. وهي أن تدفع مبلغاً من المال لبناء جامع في هذا الحي، واستطرد:

« أنت كما تعرف ... أن كل سكان هذا الحي كانوا - فيما مضى - أثرياء، مع ذلك لم يبنوا جامعاً واحداً في المنطقة، الحمد لله الآن تخلّصنا منهم، السكان الجدد يريدون بناء جامع، ونحن نجمع التبرّعات، وعليك أن تشارك بهذا .. فماذا تقول؟».

- هل تمنحوني وقتاً لأفكّر؟

- تفكّر بماذا؟

- أفكّر بالأمر.

- أي أمر؟

- بأمر الجامع ..

- هل هذا يحتاج إلى تفكير؟

- أردتُ فقط وقتاً؛ لأرى ...

- ترى ماذا؟

- أرى إن كان يمكنني أن أتبرّع أم لا.

- تتبرّع أم لا؟

- لا أقصد أني لا أتبرع ... لماذا أنت عصبيّ إلى هذا الحد؟

- أنت تفقدني أعصابي ... هل تعتقد أن بناء جامع هو شيء سيّئ.

- لا والله، لم أقل هذا، ولكنْ ...

- ولكنْ؛ ماذا؟

- أليس من حقّي أن أفكّر؟!..

- يمكنك أن تفكّر حينما يكون الأمر يحتمل السوء، لا يحتمل الخير.

- فقط أردتُ أن أفكّر ...

- الجامع يحتمل الخير، وأنت تفكّر، هذا يعني أنك إمّا ضد عمل الخير، أو ضد الله ...

- لا أبداً ...

- هذا يعني أنك ملحد ... أنك علماني ...

- لا أبداً ... أبداً ...

- إذنْ؛ لماذا تريد أن تفكّر؟

- أردتُ - فقط - أن أرى كيف يمكنني أن أتدبّر لكم المال ...

ابتسم رئيس المسلحين، وقال له:

- آه ... طيب، هذا جيد، يعني أنك من ناحية المبدأ موافق على التبرّع، أليس كذلك؟

- نعم، نعم ... من ناحية المبدأ أكيد.

- هذا أمر جيد. قال الرئيس هذا، والتفت للمسلحين الذين ابتسموا أيضاً.

- الآن هل يمكنني أن أذهب ...؟

- لماذا أنت مستعجل دائماً ...؟

- أريد أن أذهب؛ كي أفكّر بالوسيلة التي تمكّنني من تدبير المبلغ ...

- كم تريد من الوقت؛ كي تتمكّن من الحصول على المبلغ ...؟

- أمهلوني يومين فقط ...

ابتسم رئيس المسلحين، وابتسم المسلحون الآخرون، وارتخت قبضاتهم ...

- نحن نمهلك أسبوعاً ... ألا يكفي ...؟

- نعم، هذا وقت كاف جداً ...

- لكي لا يقولوا نحن متشدّدون، ولا نتسامح مع الناس.

- أبداً، أنتم متسامحون جداً.

- نعم، البعض يتّهمنا بالتشدد ... في حين يمكننا أن نقتلك بالأمس؛ لأنك خرقت قواعد الإسلام ... وكان يمكننا أن نذهب - الآن - إلى بيتك، ونجرّدكَ من مالك ... ولكنّنا منحناك أسبوعاً؛ كي تتمكّن من تقديم مساعدة في بناء جامع.

- أوافقك ...

- نحن - أيضاً - قدمنا لك مساعدة كبيرة عند الرب ... فهو سيسامحكَ على فعلتك القذرة باستخدام آلات موسيقية بدلاً من الصلاة وذكر الله.

- أوافقك ...

- ومع هذا، يسمّينا الحمقى بأننا متشدّدون ... كل هذا التساهل، وهم يسمّوننا متشدّدون ... هؤلاء الكفّار المتشبّهون بالغرب وبالصليبيين يسمّوننا متشدّدين.

- أوافقك ...

- اللعنة عليهم ...

- أوافقك ...

- حسن الآن، اذهب إلى بيتك، وسنأتيك بعد أسبوع ... إن لم يكن معك المبلغ، عليكَ أن تشتري كفنك معك!

- حسن، أشكرك على تقديم النصيحة ...

VI

ما إن سمع نبيل كلام رئيس المسلحين حتى انطلق بسرعة نحو شقّته. صعد السلم، فتح الباب، وانطلق سريعاً إلى الداخل. توقّف قليلاً، فكّر: ماذا يفعل؟ كان رأسه فارغاً تماماً. كان مرعوباً؛ لأن رئيس المسلحين كان يتحدّث معه، وهو فاقد السيطرة على أعصابه. كان يشتدّ بالحديث أمامه شيئاً فشيئاً، بينما قبضات رجاله المتوتّرين تقبض بقوة على السلاح.

وقف وسط الحجرة مرتبكاً، وهو يصغي جيداً إلى حركتهم في الشارع، وصعودهم السيارات، وانطباق أبوابها، ثم بعد لحظات، سمع صوت عجلاتها التي تحتكّ بقوة في الأرض، وهي تغادر المكان.

*

جلس أول الأمر على الأريكة، ومن توتّره نهض. لم يكن قادراً على التفكير السليم تماماً. شعر أن ذهنه فارغ في تلك اللحظة، لكنّه - في الوقت ذاته - شعر بأنه جائع جداً انطلق نحو الثلاجة، أخرج قطعة من الستيك المقلية، الموضوعة في الثلاجة منذ الأمس. كانت باردة من المفترض أن يسخنها، ولكنّه تخلّى عن هذه الفكرة؛ لأنه كان متوتّراً جداً. أخرج قطعة من الخبز الأسمر، من علبة من الخشب مغطّاة بقماش أبيض، ثم فتّش عن علب البيرة الموضوعة في البلاكار، لكنّه لم يجدها، كان الصندوق الكارتوني فارغاً. قلب الأغراض في الثلاجة، فلم يجد سوى واحدة، هذا يعني أنها آخر ما بقي له من البيرة في المنزل. إذا شربها، لن تكون هنالك علبة ثانية.

أخذ يأكل قطعة الستيك الباردة، والخبز الأسمر، مع البيرة، وهو يفكّر بالأمر كالآتي:

لو كان المسلّحون، أو غيرهم، قد طلبوا منه بناء خمّارة، سيقدّم لهم كل ما له من مال من دون ندم. أما جامع؛ فالأمر بحاجة إلى تفكير. ذلك أن جميع الإرهابيين قد خرجوا من الجامع، لم يخرج إرهابي واحد؛ ليفجّر نفسه من خمّارة!

وبالتالي لو قالوا له إنهم ينوون بناء خمّارة؛ كي يجلس فيها شباب الحي، ويتحدثوا فيما بينهم، ويقضوا وقتاً ممتعاً، ولن يفكّروا بقتل أنفسهم والآخرين، سيستجيب لهذا الأمر عن طيب خاطر، ولكنْ؛ بناء جامع؟ الأمر لا يمكن قبوله بسهولة.

فكّر نبيل حينها أن الخمرة في التراث الإسلامي لم تكن محرّمة. وظل المسلمون يشربونها طوال تاريخهم. فأبو حنيفة النعمان الذي عاش في القرن الثامن الميلادي في بغداد، وهو أحد أكبر فقهاء الإسلام، كان يحلّل شربها، والمتاجرة بها.

وهو يفرّق بين السُّكْر وهو ذهاب العقل، وهذا حرام، وشرب الخمرة، فأنت يمكنك أن تشرب على ألاّ تسكر. ثم إنه يحلّل النبيذ والبيرة، لكنّ نبيلاً لا يعرف ما هو موقفه من الويسكي والموخيتو والكومباري. مع أن الويسكي لم يكن موجوداً في ذلك الوقت، إنما هو اختراع اسكتلندي حديث، ولكنْ؛ ترتسم في ذهن نبيل على الدوام صورة شاعر بغدادي، عاش في القرن الثامن الميلادي، كان يعبد الخمرة، اسمه أبو نواس. يتخيّله جالساً في بار، ممسكاً في يده كأس الويسكي المضلّع مع بعض مكعّبات الثلج، وفيه الجوني ووكر. الصنف الذي يفضّله والده، على سائر الأصناف.

*

بعد أن أنهى نبيل أكل الستيك بالخبز الأسمر، وبعد أن شرب علبة البيرة الصغيرة، شعر أنه بحاجة إلى واحدة ثانية. ولكنْ؛ من أين؟

حسن، أليس هنالك من حلّ لمشكلته؟ الإهانة التي وُجّهت له. كرامته المهدورة. الموسيقى التي عليه أن يتخلّى عنها. هل هذه حياة؟ ماذا يفعل؟!

من زمان، فكّر بالهروب إلى أوربا، ولكنْ؛ لم يكن الوقت قد حان فعلاً، أما الآن؛ فقد حان فعلاً، وها هو - الآن - جنب المهرّب الذي سيقوده إلى المكان المحلوم، إلى الحياة فيما وراء البحار، تذكّر بيتين من الشعر تضمن هذه العبارة، لكنّه لا يتذكّر الشاعر:

«سنذهب هناك، سنذهب إلى مدينة فاضلة، تقع وراء البحار ...

هناك حيث يعيش الفنان فيها

كما لو أنه يعزف الموسيقى في الغيوم».

لكنّ السؤال الذي طرحه نبيل في تلك اللحظة على نفسه:

«هل يمكن الوصول إلى المدينة الفاضلة، أو الحياة الكائنة وراء البحار، أو التي يسمّيها بعض الشعراء بالمكان الآخر، بسيارة تشبه سيارة توصيل البيتزا، وبمهرّب يشبه بوصطجي؟!»

VII

توقّفت السيارة الهوندا الزرقاء في مكان ناء، صحراوي تقريباً، لا يعرف نبيل أين هو، ولم يسبق له أن وصل هذا المكان فيما مضى، أو رآه.

- أين نحن الآن ؟

لم يجبه المهرّب الذي بدا عليه القلق الأكيد، وهو يتصل بالموبايل بشخص آخر، دون أن يصل إلى نتيجة. كان الطريق عشوائياً، غير معبّد، مع بضعة نباتات صحراوية مزروعة ومتناثرة هنا وهناك، والظلام الدامس قد استولى على المحيط تماماً، بينما أخذ الجو يبرد شيئاً فشيئاً. لكنّ نبيلاً خمّن أن هذا المكان على مقربة من الحدود التركية، ثم خمّن أن زمن الرحيل الحقيقي سيبدأ من الآن، وليس حينما خرج بالسيارة الهوندا مع هذا الرجل الشبيه بعامل البوسطا من منزله.

ذلك أنه من غير المعقول أن يذهب إلى أوربا بهذا النوع من السيارات، ومع شخص بهذه الهيئة، وهذا الوجه الذي يفتقر إلى أي ملمح من الذكاء.

هل كان نبيل محقاً باهتمامه بواسطة السفر - نوعية السيارة - وشكل المهرّب - أكثر من أي شيء آخر؟ بل أخذت من اهتمامه تلك اللحظة أكثر من الأشياء الأخرى. ربما، ولكنّه كان محقّاً بهذا أيضاً، ذلك أنه كان خائفاً؛ لئلا يكون الأمر كله من قبيل النصب والاحتيال، وما أكثر هذه الأشياء في تلك الفترة.

*

أكثر من خمسة عشر دقيقة أمضاها نبيل، وهو يرقب السائق الذي

يحاول الاتصال برفيق له من دون جدوى. بعدها، أغلق سائق الهوندا الهاتف، ونظر لنبيل بحيرة مقلقة، وقبل أن ينطق بأية كلمة، جاءه اتصال، وأخذ يتكلّم مع الشخص المعني. في تلك اللحظة، تغيّرت نبرة السائق، شكله، معنوياته، وانعكس هذا على نبيل، وأثّر به؛ حيث انفرجت شفتاه عن ابتسامة أيضاً، وهو يرى سائق الهوندا يتحدث مع الشخص المعني، ويحدّد له مكانهما. وحين أغلق التلفون، قال لنبيل مبتسماً:

- هاي فرجت! سيأتي المهرّب بعد قليل؛ ليأخذك، ويُدخلك إلى تركيا.

- يعني أنت لست المهرّب؟

- لا، أنا سائق تاكسي، أوصلك للحدود، لا علي بالأشياء الباقية.

- والمهرّب سيأتي قريباً؟

- ثلاثون دقيقة بالكثير، ويكون عندك ..

وضع تلفونه في جيب، وأخرج مفاتيحه من الجيب الآخر، ثم أدار ظهره لنبيل؛ كي يستقل السيارة.

- أين؟

- سأذهب ... أنت انتظر هنا، وسيأتيك المهرّب بعد قليل!

- أنت مجنون! أنت لن تتحرك إن لم يأت أحد، ويأخذني من هنا!

- أنا لا علاقة لي بالأمر!

- كيف لا علاقة لك بالأمر، يا رجل! هل أنت عاقل؟ أم مجنون! جئتَ بي إلى هنا لأجل ماذا؟ نزهة العيد مثلاً ...

- أنا حصلتُ على مبلغ من المهرّب لقاء توصيلك إلى هذا المكان.

- أيّ مكان؟ هل تعرف أنت هذا المكان؟ من أين تأتي السيارات فيه؟ وأين تذهب؟

- لا أعرف في الحقيقة، أنا مشيتُ طبقاً للعنوان الذي أعطاني إياه المهرّب.

- أرجوك ... أنت لن تذهب، إن لم يأت هو! أمسكه نبيل من يده، وبقوة، إلى الدرجة التي عرف فيها السائق أن نبيل لن يتركه يذهب، لو مهما حدث. حينها زفر بغضب، وقال:

- لو لم تكن جاري، لذهبتُ وتركتُك هنا! ولكنْ؛ لأنك جاري، سأبقى ريثما يأتي المهرّب، ويأخذك.

أخرج سائق الهوندا سيجارة من العلبة، وأخذ يدخن بعصبية. بينما وقف نبيل وعينه شاخصة في الظلام متوجّساً ومترقّباً المهرّب الذي سيصل بعد قليل.

في تلك اللحظة، وكي لا يتراجع نبيل عن قراره، أخذ يتذكر كل ما يدفعه لترك هذه البلاد، والذهاب إلى بلاد أخرى. تذكر صديقاً له قبل أيام، كيف قام بتحليل رصين ومبسّط لمشهد الحياة الذي أخذ يتبدّد شيئاً فشيئاً:

- يا للتقصّي الدقيق! قال نبيل له.

لكنّ ما دفعه إلى التفكير، بالرغم من كل شيء، في مغادرة البلاد بأسرع ما يمكن، هي الموسيقى، والتي من دونها لا تستوي الأمور في نظره أبداً. وقد قال ذلك حرفياً، إلى صديقه البدين الذي جلس أمامه، وهو يرتدي ربطة عنق فرنسية جميلة، كانت أشبه بفولار أزرق فاتح، مع ترصيعات بيضاء دقيقة جداً على شكل نقاط، وغير مثبتة حول العنق بعقدة، وإنما بخاتم ذهبي:

- تصوّر، كل هذه الأشياء علينا أن نرميها، ولا نرتديها في المستقبل، سنرتدي الدشداشة والنعال، ونلفّ على رؤوسنا بعض الخرق؛ لنصبح مندمجين مع السياق العام للجماهير.

غير أن نبيل لم يكن مَعنياً بما نلبس، بمقدار ما نعمل. أو بمقدار ما نعزف على نحو دقيق. وهذا هو الشيء المهمّ بالنسبة له، أو هذا هو في الواقع ما يجعله قلقاً بشكل أكيد في تلك الأيام، وليست الأشياء الأخرى، كأكثر أقرانه.

- هل تتخيل أن أحداً سيتركك تعزف التشيللو؟

هزّ نبيل رأسه قلقاً، كان يدرك أن ثقافتين ستتصارعان في هذه البلاد، على نحو شرس، ثقافة الفن التي أخذت تتدهور وتقهقر منذ الحروب التي كان يشنّها صدام، وثقافة جماهيرية، تقوم على إحياء العنف وغريزة الدم، ستصعد؛ لتحل محل الدولة العنيفة التي تهاوت، وتهشّمت.

أين مكانه هو في هذه المعركة؟

لا أحد يحل هذه الإشكالية سوى: الهروب إلى "الحياة الكائنة في ما وراء البحار"... التعبير الذي كان يلذّ له استخدامه مكان تعبير: "الهجرة"، "اللجوء"، "المنفى".

وبأشدّ وجوهه قلقاً، انتهى، إلى أن جاء المهرّب الآخر في سيارة كبيرة، شاحنة على الأرجح.

VIII

لم يتبدّد قلق نبيل بعد، في الواقع. ذلك أنه كان يعرف قصصاً كثيرة عن المهرّبين، قصصاً متنوعة، ولكنّها متشابهة في نتائجها، متشابهة في رعبها وترويعها، لا الخداع والتزوير والألاعيب الأخرى المشتهرة ذلك الوقت، ولكنْ؛ هناك ما هو أفظع: السرقة مثلا، الخطف، الأسوأ هو القتل والاغتصاب. أما الشيء الشائع بطبيعة الأمر؛ هو الخداع. يعني أن ترمي مالك في جيب المهرّب، وتعود إلى النقطة الأولى، تعود إلى المكان الأول بأسوأ مما رحلت عنه. ومع ذلك، كان نبيل يجد لنفسه أعذاراً في كل مرّة يستمع لقصة من مثل هذه القصص.

كأن يقول مثلاً : إن الأمر سيختلف معي حتماً.

مع ذلك، حين اختار نبيل الرحيل إلى أوربا، اختار لنفسه أسهل الطرق مع أنها الأكثر ارتفاعاً في الأسعار، فهو لا يريد أن يذهب في زورق مطاطي من أزمير في تركيا إلى اليونان، ثم ينقلب الزورق، ويصبح طعماً للأسماك.

كان مجرد التفكير في هذا الأمر يجعله يرتعد. لذلك أخذ نصيحة من أحد أقاربه، هو أن يذهب بشاحنة واحدة، تأخذه من الحدود التركية، وتلقي به فوراً في بلجيكا، يعني لا حدود، ولا شرطة، ولا خفر سواحل، ولا انقلاب الزورق المطاطي، ولا مآسي، ولا أشياء أخرى.

- لاجئ VIP ! هكذا قال له أحد أقربائه.

*

وهكذا صعد في هذه الشاحنة التي أقلّته من ذلك المكان العشوائي

متّجهة إلى أوربا. جلس إلى جانب السائق التركي الذي لم يكن يُحسن إلا بضعة كلمات إنكليزية، متوجّساً وحذراً. كانت لحيته طويلة قليلاً، وله عينان متقاربتان مع بعضهما، لم يكن يبدو عليه أنه خطر، مجرم مثلاً، ولكنْ؛ من الممكن جداً، أن يكون نصاباً أيضاً.

ومع انبلاج الصباح، تغيّرت الرحلة في نظر نبيل، أصبحت أكثر متعة، فهم يقطعون مدناً تركية ذات بنايات جميلة، شوارع واسعة، بوتيكات للملابس، مطاعم، سوبرماركتات ضخمة، مشاهد سياحية وطبيعة خلابة. فتغيّر مزاجه، وأخذ يشارك السائق الحديث البسيط بالإشارات والكلمات الإنكليزية القليلة، ويشاركه التدخين، وأكل البرتقال.

لقد اعتقد نبيل أول الرحلة أنه بواسطة هذه الشاحنة سيصل إلى بلجيكا، سيصل، وهو جالس إلى جوار السائق، يدخن السجائر، ويقشّر البرتقال، ويأكل!

إلا أن السائق فاجأه أن الأمر لا يتعدى أن يوصله إلى الحدود من جهة أوربا، ومن هناك، سيقطع كل أوربا للوصول إلى الطرف الآخر؛ حيث تقع بلجيكا.

وكان من المفترض أن المبلغ قد وصل المهرّب من طرف ثالث كاملاً، إلا أنه أصرّ على أن يحصل من نبيل على مائتي دولار إضافية، لا سيما بعد أن رأى ملابس نبيل الأنيقة، فقد بدا على نبيل من ملابسه أنه ذاهب إلى موعد «ديت غيرل فريند» أكثر مما بدا عليه أنه لاجئ بائس، ذاهب إلى أوربا، طلباً للحماية.

*

لم يكد نبيل أن يعبر الحدود حتى أصعده المهرّبون في شاحنة كبيرة مع عشرين شاباً آخر. هكذا انتهى قلقه من سيارة توصيل البيتزا التي

تكفّلت - فقط - بإيصاله إلى الحدود التركية! وانتهت بهجته بالشاحنة الكبيرة التي قطعت به تركيا، مع التدخين والبرتقال والفستق؛ لتستلمه شاحنة أخرى، تتكفل بإيصاله إلى النقطة النهائية في الرحلة.

إنها شاحنة مغلقة لتصدير الإطارات، دفع نبيل سبعة آلاف دولار كأجرة للمهرّب، فأدخلوه في صندوق خشبي كبير، فيه فتحات صغيرة للتنفس، فيها قناني للماء، ومعلّبات طعام، كونسيروة، وأكياس نايلون تُستعمل للبول والغائط، في رحلة أمدها عشرة أيام فقط للوصول إلى المدينة الفاضلة. الشاحنة تسير في الليل، وتتوقف في النهار؛ كي ينام السائق. عند التوقف، أو قبل الانطلاق في الليل، يجمع السائق أكياس النايلون؛ ليرميها في مكان بعيد.

هكذا سافر نبيل داخل صندوق في شاحنة مغلقة، لذا؛ فهو لا يرى الطريق في الخارج. لا يعرف من أين دخلوا، ولا أين وصلوا، السيارة تسير فقط، وهو في صندوق يحسب الساعات التي تمرّ ساعة بعد أخرى. ما كان يقلقه هو نصب واحتيال المهرّبين.

- ماذا لو لم تكن هنالك أية رحلة إلى أوربا؟ هكذا قال في نفسه. تساءل، وهو يحاول أن ينسى المكان غير المريح الذي ألقى نفسه فيه. ماذا لو كان الأمر لا يتعدى أن يكون خداعاً وتزويراً واحتيالاً؟!

قصص كثيرة من هذا النوع تُحكى من قِبل اللاجئين الذين حاولوا الوصول إلى أوربا بأيّ ثمن.

فكّر نبيل، وهو يحكّ رأسه.

- ببساطة شديدة أن يحدث أمر هكذا هذه الأيام.

الأمر ليس صعباً أبداً. من الممكن - مثلاً - أن السيارة التي صعد فيها سوف تدور في شوارع المدينة ذاتها، ولن تنقله إلى أي مكان آخر. ستدور

وتدور الليل كله، فقد سمع الكثير من الحكايات التي تعبّر عن نصب وخداع المهرّبين، وبالطريقة ذاتها أيضاً؛ أي أن تكون في الداخل، ولا ترى شيئاً، وتعتقد أنك في الطريق الصحيح، وأن المهرّب في طريقه لإيصالك إلى المكان الذي حلمتَ به.

IX

المرّة الوحيدة التي خرج فيها نبيل في الطريق كانت بعد أن نفدت أكياس النايلون التي يستخدمها لتغوّطه. انتهت عنده، هو وشابٌ أفغاني آخر، فأخبرا السائق بذلك. وافق السائق، بغضب وبتذمّر من دون شك، على أن ينزلهما في غابة لقضاء حاجتهما. ذهب الأفغاني أولاً، حين عاد، قال لنبيل:

- أظنّ أن هذا المكان هو بولونيا.

فكان الدور لنبيل أن يخرج من الشاحنة، ويتجه إلى الغابة المظلمة. في الواقع لا يعرف كيف استنتج هذا الأفغاني أن تكون هذه الأرض هي بولونيا، ذلك أنها تشبه أية حديقة في تركيا. لكنّ كلمة بولونيا بالذات قد مسّت نبيل مثل عصا سحرية. فهذه الكلمة ما إن يسمعها حتى تحوله إلى كلب بافلوف. تُحيله مباشرة إلى طفولته، ففي ذلك الوقت كان لعمّه صديقة بولونية، أسمها آنا، جاءت من وارشو إلى بغداد؛ كي تراه. وقد اصطحبه عمّه مرّة معه في سهرة في بار فندق الرشيد، وهو فندق فخم في بغداد، مع صديقة لها أخرى، اسمها أيفا، كانت تعمل في السفارة البولونية، وتقطن في بغداد، في الثمانينيات. وقد شرع الثلاثة، بشرب الفودكا، والرقص على أنغام الموسيقى الصاخبة، والأنوار الملوّنة. لم يكتف العم بالشراب ومراقصتها وصديقتها فقط، إنما رآه نبيل كيف يمد يده بين فخذيها لمداعبتها. كانت الفتاة شقراء، لونها أبيض. لم ير نبيل امرأة بيضاء مثلها من قبل أبداً، ولا سيما فخذاها.

ثم انتقلوا إلى منزل فخم في حي عرصات الهندية التي كانت مدينة

راقية ذلك الوقت، وقد أسّسها الإنكليز أثناء احتلالهم لبغداد في العام ١٩١٧. كان المنزل بحديقة وارفة ومسبح، وهنالك العديد من الضيوف، ولا سيما من الشباب الأجانب العاملين في الشركات والبعثات الدبلوماسية، في تلك الحقبة من الزمن.

أخذ نبيل يراقب الفتاة، وهي تجلس جنب عمّه، فقد بدت متوهّجة من المحادثات المهموسة. وكان عمّه يلمس من وقت لوقت وجهها، أو ذراعها، فتبتسم له، وتواصل الحديث معه، بينما عيناها الداكنتان الواسعتان تزدادان رقّة، يصاحبهما نوع خاص من الحنو. بعدها بدأ الاثنان بترديد لحن أغنية إنكليزية معاً، انتهت بالضحك والمعانقة. ثم مضت آنا إلى النافذة، ووقفت هناك تنظر إلى الشارع في ليلة من ليالي الشتاء المبكر الذي هجم على بغداد، فتبعها عمّه، وأخذ يتمادى في مغازلتها، في العلن، وأمام الجميع.

وبعد أن غاب نبيل لدقيقتين اثنتين فقط، فقد ذهب داخل الصالة؛ ليضع صحنه على المائدة، وحين عاد، وجد آنا غائبة في قبلة محمومة بين يدي عمّه، عيناها مغمضتان، وجهها مفعم بالدفء والتوهّج.

سحبت شفتاها تدريجياً من شفتي عمّه المخدّر أمامها، ونظرت بطرف عينيها إلى نبيل الذي كان يراقبهما، بصمت وخجل، فتوقّفت، وشبكت يديها على كتف صديقها الذي احتضنها بنوع من البهجة المنشرحة، وأخذ يضحك بصوت عال، وبوجه يسفر عن نوع من الحب، لم يألفه نبيل من قبل، مما جعله يشعر بالغيرة والفضول معاً.

*

نبيل لا ينسى كيف اقتربت منه آنا بعد أن ذهب عمّه إلى التواليت، وتحدثت معه:

- لقد أمضيت وقتاً جميلاً، أليس كذلك؟ كنتُ أراقبك، لقد كنتَ تراقبني، يا نبيل.

- لا أبداً ... قال لها، وقد طأطأ رأسه من الخجل.

اندفعت نحوه، واحتضنته، وأخذت تفرك يدها في داخل شعره ضاحكة مثل فتاة صغيرة.

- هل كنتَ تراني وأنا أغازل عمك؟ هل شعرتَ بالغيرة بالفضول؟ هل ترى أني ضحكت، وهمست أكثر مما ينبغي؟ هل تراني ظريفة؟

لم يجبها نبيل عن تساؤلاتها، لكنّها حين احتضنته، وقد شم رائحة جسدها المشبعة بالصابون، أغمض عينيه حتى كاد أن يسقط من الدوار.

*

لا يتذكّر نبيل، فيما إذا كان عمّه قد اصطحبه معه، أو أن أهله قد أرسلوه مع عمّه؛ كي يبقى رقيباً عليه؛ لئلا تغويه الفتاة البولونية، وتفترس عفّته.

وبعد عودته للمنزل، لم يخبر أهله بما رأى، سأله أهله ماذا رأى، وكيف كانت الحفلة. كانوا يريدون أن يعرفوا ماذا حدث هناك، إلا أنه لم يتكلم، فقرّرت أمه أن تسأله، وهي تقرأ كتاباً في يدها:

- هل أعجبتك الحفلة ؟

قال بلؤم:

- لا!

- لماذا؟

- كانت حفلة مملّة. وقد ضاق صدري بتلك الجماعة. لا أحد يتكلم، أو يرقص منهم.

حاول عمّه أن يمسك عن الابتسام، غير أن وجهه المتّقد مازال متوهّجاً بالحب.

*

كان نبيل قد شعر بأنه أمضى وقتاً جميلاً فعلاً، شعر أنه وللمرّة الأولى في حياته، قد استمتع بالنظر إلى عاشقين يتغزلان علناً، وعلى هذا النحو في حفلة متّقدة. وقد قال له عمّه إن مشهد الغزل في أوربا، هو مشهد عام، في كل مكان. وربما من الأشياء التي دفعته، دفعت نبيل، أن يقوم بهذه الرحلة الخطرة هو تجريب هذا النوع من الشعور: مشاعر الحب في الشارع، أمام الجميع دون خوف، أو رهبة، أو القبلة في الهواء الطلق.

على العموم، إن هذه الذكرى جعلته سعيداً ومبتهجاً لمدة طويلة، وما برح يستذكر هذه الصبية على الدوام، ويستعيد ما تركته في نفسه من أثر لا يُمحى أبداً.

*

غير أن هنالك مشهداً، ظل يتكرر من طفولته حتى هذا اليوم، هو أن عمّه قد جرد البولونية من كل ثيابها، إلاّ من عقد في رقبتها، وطرحها على الأريكة، وأخذ يضاجعها. لا يعرف نبيل إلى هذا الوقت، إن كان هذا الأمر من خيالاته، أم حقيقة.

على العموم، صارت كلمة بولونيا عند نبيل، عصا سحرية، تعيد له الصورة ذاتها كلما سمعها ترنّ في أذنه. وما إن عاد إلى الشاحنة، وقد تلمّس مكانه في الظلام، حتى شعر بانتصابه، إلى أن غفا، دون أن يعرف كيف.

X

قال له المهرّب بصوت خفيض، وهو يتلفّت كأنه يبحث عن شخص ما:

- اهبط بسرعة، هذه هي بروكسل.

- بروكسل ... صحيح ...

- بروكسل؟!

- معقولة؟!

- اهبط بسرعة، يا رجل.

لم يكن نبيل مصدقاً أول الأمر. فما إن هبط من السيارة حتى رأى بمواجهته ساحة مظلمة، قذرة، لا تتميّز عن أي ساحة في العالم الثالث. هبط ببطء، وهو يجرّ حقيبته وراءه.

نظر إلى المكان، حائراً، غير مصدّق، تمعّن في المشهد، وهو يفغر فمه! تلفّت يميناً وشمالاً، وتساءل في نفسه:

- هل يريد أن يخدعني هذا المهرّب؟

المهرّب الخائف والمستعجل؛ حيث لا وقت عنده، سحبه من يده بقوة، جرّه جرّاً، وهرع؛ ليعبر به الشارع نحو منزل شبه متداع. منزل قديم، يقع في الركن من ساحة بشعة واسعة. في ركنها محل للغسيل، قال له بصوت خفيض، ولكنْ؛ مشدّد:

- بسرعة ... بسرعة.

هُرع نبيل تابعاً إياه، وهو يجرّ حقيبته جرّاً، إلا أن حذاءه انخلع، وبقي وراءه، فسحب يده من المهرّب، وعاد؛ ليجلب حذاءه صارخاً:

- يواش ... حذائي ...

- هذا وقتها ... لئلاّ ترانا الشرطة ...

- نعم، ولكنّ حذائي ما عندي غيره.

فتح المهرّب الباب بالمفتاح، وأدخله إلى الداخل.

- هل نحن في بروكسل؟ سأل نبيل المهرّب مستنكراً.

- نعم، هذه بروكسل، هل أنت سكران؟

- لا، ولكنّها أقذر من بغداد.

- هذه منطقة، كلها مسلمون ... مغاربة وأتراك ...

- ها فهمت!

رافقه المهرّب إلى الداخل، كان السلّم قذراً، رائحة الأحذية والجوارب تغزو الفضاء. سلة النفايات متروكة من زمن. مجموعة كراكيب غير معروفة المعالم موضوعة فوق بعضها. كتب قديمة مخلّعة الأغلفة. كراتين قرب السلم. دراجتان عتيقتان عند الباب. صندوق البريد المركب على الباب محطّم، والرسائل متناثرة في كل مكان.

المكان أشبه ببرج حمام على السطح، لم ينظّف منذ شهر.

صعد المهرّب مع نبيل على سلّم خشبيّ مصبوغ بلون رصاصيّ يهتزّ، إلى شقّة صغيرة، أنارها له. أعطاه المفتاح، وقال له:

«اسمع، هذا المكان مؤقّت، لا تنس ذلك، لا تكن أحمق مثل ذلك الذي قبلك الذي بقي هنا شهراً كاملاً دون أن يسلّم نفسه، تخفّ هنا، يوماً، أو يومين، ثم سلّم نفسك للشرطة كلاجئ، صحيح الإيجار مدفوع

لمدة شهر، ولكنْ؛ لا يفيدك، عليك أن تذهب أنت إلى الكامب، كي يعترفوا بك كلاجئ.

- وإذا لم يعترفوا بي كلاجئ؟

- ارجع للعراق، ونحن نجلبك باسم آخر ...

- ها أوكيه!

- لا تخف، كل شي له علاجه، ولكنْ؛ كل شيء بثمن.

- افتهمت».

*

رمى نبيل حقيبته على الأريكة في الصالة. وسار بضعة خطوات؛ ليتفحّص الشقّة. كانت محتوياتها في فوضى أشبه بفوضى حرب الفرس، المعركة التي وصفها غوبينو في إيران في القرن التاسع عشر. دولاب كبير غير متّسق، يشغل معظم مساحة المكان. كراسي محطّمة، سجّاد غير نظيف، على الحائط بوستر إعلاني رديء، وهنالك علمان: علم تركي، وعلم مغربي. لا أثر للعلم للبلجيكي مطلقاً. ممرّ صغير يقود إلى مطبخ أشبه بقنّ مزدحم بطبّاخ بعينين على طاولة، وهنالك أوان، وطاوات، وطناجر وسخة، بعضها فوق بعض. أما رائحة المكان؛ فزنخة، والزيت يبقع الحائط.

- معقولة أنا في بلجيكا؟

ثم هنالك الحمّام، وهو صغير أيضاً، دوش صدئ، ضوء أصفر شاحب أشبه بهذا الموضوع في دكان الخضروات في الحي الذي يسكنه في بغداد، يخلو من أي اسم للنظافة، والأكثر من هذا هنالك صوندة للشطف، كما يفعل المسلمون عادة، وليس كالأوربيين الذين يستخدمون ورق التواليت.

- معقولة أنا في بروكسل؟

*

فكرة نبيل عن أوربا مغايرة تماماً عما يراها أمامه، فكرته عن الحياة في أوربا هي مثالية على نحو مبالغ به كثيراً، هي السكن في أبّهة، حياة لوكس، رفاهية من نوع خمس نجوم، لمعان أرضية، عطور تنبعث من كل مكان. وليس هذه الخربة التي لا تعدو أن تكون شقة في بغداد، بل حتى شقته في بغداد أفضل منها.

داخ، أصابه دوار، صعدت الحمّى في جسده، ولا سيما أن حكاية المهرّبين النصّابين الذين يدورون في المكان ذاته، ومن ثم؛ يلقون بالمهاجر في حديقة، أو في منزل، لا يعدو أن يكون في ضاحية من ضواحي اصطنبول، أو أزمير، أو أدنة، طنّت في رأسه مثل نحلة.

استلقى على الأريكة واجماً، مدّ يده، فقبضت على الرموت كونترول المرمي إلى جانبه، استدار، فرأى التلفزيون المثبت على الحائط، بهدوء شديد، أخذ نبيل يدير القنوات، أكثرها تركية، أو مغربية، قلة منها غربية، ولا سيما تلك الخاصة بالإعلانات، أما بشكل عام؛ فهي قنوات رياضية، قنوات أخبارية، قنوات موسيقية، قنوات للأزياء، قنوات للطبخ، قنوات للمسابقات، والملفت للنظر حقاً، لا وجود لقنوات إباحية.

«معقولة، لا وجود لقنوات إباحية في بلجيكا. هل يطبقون الشريعة هنا؟!»

سرعان ما شعر بالجوع، فذهب إلى الثلاجة، وجد ساندويشة ملفوفة في كيس مكتوب عليه بالعربية سناك محمد. التهم الساندويشة، ثم ذهب إلى الحمّام. حين خرج، شعر بأنه متعب جداً، فتمدّد على الأريكة، وغط في نوم عميق. استيقظ في منتصف الليل، كان متعباً وعطشاً، فتناول كأس ماء، وأمسك الرموت كونترول، قلّب القنوات بحثاً عن قناة إباحية، لكنّه لم يجد. فاستقر على قناة للموسيقى. كانت الموسيقى جدّ رومانسية وحالمة، أصغى جيداً. شعر بهدوء كبير في نفسه.

فجأة قفزت في ذهنه صورة الفارابي الفيلسوف العربي الذي عاش في القرن الثامن الميلادي. فقد رأى في الموسيقى عنصراً مهمّاً في المدينة الفاضلة، ذلك أن فكرة العدل تأتي من فكرة التناغم في الموسيقى. هل يمكن أن نعدّ فكرة السعادة قائمة على قضية رياضية، أو منطقية؟

الفارابي يقول: نعم.

الطبقة الرثّة تقول: لا!

ابتسم مع نفسه، هل سيستخدم هذا التعبير الطبقة الرثّة في أوربا أيضاً؟

انقلب نبيل على الجهة الأخرى، أغمض عينيه، أخذ يصغي بكل صفاء إلى الموسيقى الهادئة القادمة من التلفزيون. وما تزال أفكار الفارابي تدور في رأسه، إن في استخدام الموسيقى، أو في علاج الأمراض النفسية والعصبية. ها هو يشعر بأنه سعيد، أو على الأقل مطمئن. فالموسيقى أداة سحرية قريبة من التنويم المغناطيسي.

XI

دقائق، ثم استقام على الأريكة، وضع يده على خده، وما يزال الفارابي في ذهنه، هل كان أذكى من الفلاسفة الإغريق حينما تجاوز النزعة الشكلية للفلسفة الإغريقية في النظر إلى الموسيقى؟! هكذا تساءل نبيل في نفسه. ذلك أن الإغريق اكتفوا بفهم الموسيقى مجرد صوت في حركة، أو تشكيل زخرفي في حالة حركة، لكنّ الفارابي عمّق فهمه؛ ليصل بها إلى المشاعر، وما يصاحب هذه المشاعر أيضاً. هكذا هو الآن مرتاح، مسترخ، منطلق، يسبح في الغيوم، في تلك اللحظة، جاءه صوت واهن، سرعان ما بدأ بالارتفاع، إنها صلاة شخص مسلم بصوت عالٍ. تكرّر الكلام ذاته مرّة بعد مرّة. مثل التكرار في الموسيقى الشرقية.

تذكّر جدّه يصلّي هكذا بصوت عالٍ، ولا سيما في الصباح، ويمنعه من النوم. فلجدّه صوتٌ قبيحٌ، أشبهُ بهذا الصوت القادم من الشقّة المجاورة، لكنّه لا يكفّ عن الجهر به في كل صلاة. لو كان صوته جميلاً، لا بأس، ولكنْ؛ أن تسمع صوتاً يردّد الأشياء ذاتها مثل موسيقى القرب، فهذا يصعب احتماله! هنالك شيء آخر:

هل نحن في بلجيكا؟

في تلك اللحظة، شعر أن الفارابي تهاوى، فكرة الموسيقى، العدل، السعادة، كلها أصبحت تتلاشى شيئاً فشيئاً، ويحلّ محلّها الخوف لئلا يكون في بلجيكا.

- أين أنا حقّاً؟

في البداية، أنكر نبيل أن يكون ما سمعه حقيقة. حاول أن يشكّك بالأمر، ولكنّه تأكد فيما بعد. كان الصوت واضحاً، مخارج الأصوات ترنّ في الغرفة المجاورة. شعر باليأس، رمى نفسه فوق الأريكة بحزن. فقد أطاح هذا الصوت بالمقدار القليل من الأمل الذي كان عنده. وقد أصبح قلقاً وحزيناً لئلا يكون في بلجيكا، إنما في بلد آخر. في بلد مجاور لبلده، في العراق، في تركيا، في إيران، إنهم المهرّبون اللصوص وقَصصهم على الدوام. حين أراد النوم لم يستطع. أخذ يتقلّب، وضع الوسادة على أذنه دقائق، ثم سكن قليلاً، الشيء الوحيد الذي لاح له مسلّياً وممتعاً وسط هذا الجو الكئيب هو أنه استعاد بذاكرته الفتاة البولونية، وكيف ضاجعها عمّه على الاريكة، حينما كان يراقبهما، وهو صبي، وكيف ارتسمت في ذهنه ساقاها البيضاوان الملساوان جداً.

XII

استيقظ نبيل صباحاً باكراً، فتح حقيبته، واستخرج ملابسه:

- آه نسيت المنشفة...ثم استدرك ليست المنشفة وحدها التي نساها...

فمشكلة نبيل الأساسية في السفر، أنه ينسى أشياء كثيرة عندما يرتب حقيبته، ومع انه جاء بأشياء قليلة جداً، ولكنّه خمّن على الأقل أنه حينما يصل إلى المدينة الفاضلة، سيحتاج إلى ملابس جديدة، فجاء بها معه.

- أوه، البنطلون الجينز الثاني - أيضاً - نسيته Shit.

ارتدى قميصاً، استخرجه من الحقيبة، لكنّه ارتدى بنطلونه ذاته الذي جاء به في الرحلة، غسل وجهه في المغسلة، فرّش أسنانه، وضع زيتاً على شعره، ومشطه، نظر إلى شواربه، تساءل هل يحلقها؟ أم يبقيها؟ سؤال سأله لنفسه ألف مرّة قبل هذه المرّة حينما كان في بغداد، إلا أن قراره في هذا الشأن أجّله أيضاً؛ كي يحسمه في أوربا، مع ذلك هو ليس متأكداً فعلاً أنه - الآن - في أوربا.

بعدها ارتدى حذاءه، شدّ حزامه، وهبط من السلّم القذر إلى الخارج.

حين رأى الشارع سرعان ما تبدّد قلقله.

إنه ليس في تركيا، ولا في العراق، ولا في إيران، إنما في مدينة لم يتعرف عليها جيداً من النظرة الخارجية، لكنّها من دون شك في أوربا.

حيّ للمهاجرين، على الأرجح. هنالك العديد من السود الذين يسيرون في الشارع، هنالك العديد من العرب، من الآسيويين، من اللاتين، واجه الكثير من المحجّبات في طريقه، ولكنْ؛ هنالك أوربيات أيضاً.

اللافتة الزرقاء الموجودة على الحائط تشير أننا في شارع سيرجنت براين في حي أندرلكت في بروكسل، وعلى اللافتة أن هذا العريف قد قُتل في العام ١٨١٢ من أجل ترسيخ الحضارة في الكونغو. ابتسم، وهو يقرأ كلمتي (حضارة) و(كونغو). القصة الاستعمارية ذاتها، وهي تتكرر في كل مرّة!

شعر بسعادة، بتشفّ، بتهكّم في البدء من البلجيكيين، شعر بتنوير ما، وهو يرى مكر التاريخ بعينيه، وكيف تحوّلت هذه القصة من جندي بلجيكي في الكونغو، إلى كونغو أخرى في بلجيكا.

مَن الرابح؟ مكر التاريخ مرّة أخرى. ضحك:

هاهاهاها ...

وسار في خط مستقيم في الشارع حتى وصل شوسيه دو مونس، شارع واسع يقطعه الترام، منازل قديمة، بارات أفريقية، سناك تركي، لافتات المطاعم مكتوبة بالعربية، كلها تقدّم الحمّص، الفلافل، الكباب.

- هل قطع نبيل كل هذه المسافة الطويلة؛ كي يأكل الكباب هنا؟

هاهاهاها ضحك بصوت مسموع.

- التكرار العربي مرّة أخرى. قال نبيل في نفسه.

آه، إنه الشيء ذاته، الصوت ذاته، البنايات كأنها تتشابه، المطاعم تقدّم الطعام ذاته، انتبه نبيل - أيضاً - إلى حقيقة أخرى، استمدها من فهم الفارابي للموسيقى العربية التي تقوم على التكرار، أن فن الأرابيسك العربي أيضاً، ليس مجرد فن زخرفي خالص، انحناءات وتنويعات لا تُحصى،

إنما يتعدّى ذلك؛ ليصل إلى نظرة العربي الروحية للزمان الدائري الذي يحكم الكون. فلسفة ههه ضحك. توقف. ابتسم. قال بصوت مسموع: طز! مَن يهتم؟!

*

كلّما أوغل في السير، ازداد الشارع ازدحاماً. وصل حتى المجزرة. مكتوب على بوّابتها الكبيرة الملطّخة ببقع الدم:

«ذُبح على الطريقة الإسلامية».

قرّر العودة إلى غرفته خشية أن يضيع وسط الحشود. في طريق العودة، رأى محل السناك مكتوب عليه شي محمد المغربي. دخل. حدّق في أطباق الطعام الموضوعة خلف الزجاجة. طلب ساندويشاً، وقليلاً من الفريت سفري.

التلفزيون يقدّم أخبار الجزيرة.

الجالسون: أفارقة، عرب، أتراك، إيرانيون. النادل يتكلم التركية. بسرعة أعدّ له طلبه، وضع الساندويش في كيس، وقدّمه له. بينما هو خارج، صادف رجلاً في الخمسين من عمره، لحية سوداء مصبوغة، شارب شبه حليق، يرتدي ملابس أشبه بالملابس الأفغانية، موضة الثوار الجدد، الموديل الذي يتشبّه به السلفيون منذ الحرب الأفغانية ضد الجيش السوفيتي. شعر أن هذا السلفي يتعقّبه دون أن يلتفت إليه. ولكنْ؛ ما إن وصل إلى باب منزله حتى قبض عليه من يده. التفت نبيل فزعاً. فقال له السلفي:

- ألست مسلماً؟

ارتبك نبيل، وقال بعد تردّد:

- نعم، نعم، أنا مسلم!

- وكيف تأكل، يا رجل، كيف؟ قالها بغضب، مما جعل نبيل يرتبك فعلاً.

- سيدي، وهل ممنوع على المسلم أن يأكل؟

- بالطبع ممنوع! بل حرام أيضاً! ماذا يقول عنا الكفّار؟

- كيف حرام؟

- نحن في رمضان، يا رجل! ألا تعرف رمضان؟

- نعم! ولكنْ؛ رمضان في بلجيكا؟

- يعني إذا أتيتَ إلى بلجيكا، تتخلّى عن إسلامك؟

- لا طبعاً! ولكنْ؛ سامحني، يا سيدي! نسيتُ!

- بالطبع، أنا سأسامحك، ولكنْ؛ لا اعرف إن كان الله سيسامحك أم لا؟

- أأمل أنه سيسامحني.

أراد أن يغادر بسرعة ، فمسكه الرجل من يده.

- أين؟

- إلى بيتي!

- لا دقيقة واحدة ... اسمع! إنك طالما أخطأت، وفي رمضان، فعليك ان تدفع كفّارة لذلك.

- أدفع كفّارة؟

- نعم! كفّارة!

بقي نبيل فاغراً فمه أمام هذا الرجل الذي استرسل:

«في الواقع أنت تعرف هنا المسلمون كثيرون، ولم يعد هذا الجامع

يستوعبنا، فنريد أن نبني جامعاً آخر، ولهذا نحن نجمع تبرّعات من المسلمين المقيمين هنا، وبما أنك مسلم، وأفطرتَ في رمضان، ومن أجل أن يسامحك الله على فعلتك الشريرة هذه، عليك أن تدفع مبلغاً من المال لبناء الجامع، وعندئذ سيسامحك الله .. أنا أعطيك ضماناً بذلك».

- سأفكّر بالأمر، عليّ أن أرى كم عندي، وكم أدفع، وسأردّ عليك.

- أين تسكن بالضبط؟

- في هذه البناية!

- آه، أنت تقطن قرب أحد أخواننا، إنه رجل مؤمن جداً. اسمع، سنمرّ عليك غداً؛ لنعرف كم تدفع.

تركه نبيل، وانطلق بسرعة؛ ليصعد إلى الشقة مضطرباً وحائراً. كاد أن يفقد أعصابه في البداية. وضع الكيس على الطاولة. ذهب إلى الثلاجة، فتحها، لم يجد شيئاً فيها. عاد، وجلس على الأريكة. تناول الكيس، وأخرج الساندويش، وبدأ يأكل. كان قد شعر بقليل من العطش، ارتسمت في ذهنه علبة البيرة الأخيرة في آخر يوم له في بغداد. قرّر أن يذهب؛ ليجلب لنفسه بضعة علب بيرة. أطلّ من الشبّاك، رأى السلفي، وقد غادر المكان، تلفّت يميناً وشمالاً، رأى شيئاً غريباً:

رأى حذاء معلّقاً بحبل يهبط من الشقة العلوية إلى شقّته. فاضطرب، عاد مرتداً إلى الداخل، شعر بأنه - ربما - مراقب من أحد ما.

عاد إلى ساندويشته. وضع الفريت في صحن، وراح يبحث عن الكاتشاب في المطبخ، ثم عاد مرتبكاً تماماً. الأمر محسوم بالنسبة له: لن يدفع درهماً واحداً لهؤلاء المتشدّدين سواء في بغداد، أو هنا، ولكنْ؛ أيّ حظٍّ هذا؟! فقد هرب من بلاده، بسببهم، وها هو يجدهم أمامه هنا. هل يحدث هذا؟!

XIII

بعد ساعة، خرج من المنزل، سار في شارع جوريز حتى النهاية متحاشياً وجود السلفي في الركن من الشارع. وصل إلى شارع عريض جداً، اسمه آفنيو فيين. كانت هناك عدة محلات ألمونتاسيون تبيع الحاجيات المنزلية. دخل أحدهما. الأقرب إلى الشارع العام في واقع الأمر. رأى في المقدمة صاحب المحل، وهو باكستاني صامت، يقوم بخدمة المحلّ، من دون أن تتحرك عضلة واحدة في وجهه. اشترى منه أربع علب بيرة، وهو يتلفّت لئلاّ يراه أحد، ثم عاد من شارع بورنيه إلى شارع السيرجنت براين. ما إن وصل على مبعدة خطوات من منزله، حتى فاجأه شخص، كان مختبئاً في الركن:

- هل أنت مسلم؟

اضطرب نبيل دون أن يعرف ماذا يجيب. كان الشخص من البيض، هكذا بدا ظاهرياً. شعر أشقر طويل، مشدود إلى وراء، وعينين خضراوين، ولكنْ؛ بملابس عتيقة تقريباً.

- نعم ... نعم ... لماذا؟

- هل تبيع الحشيش؟

اضطرب نبيل بشكل أكبر، قال له نافياً:

- لا لا ... أبداً، لم يسبق لي أن تعاطيتُ هذه الأشياء.

- لا تخف، يا رجل، أنا أريد أن أشتري!

- ولكنّي لا أعرف ...

استدرك الرجل:

- لا أعرف أين بالضبط، ولكنْ؛ كنتُ جئتُ مرّة هنا، واشتريتُ من شخص في هذه البناية، كان العلامة هو أن يعلّق حذاءً كبيراً، بحبل من الأعلى، دليل على أن لديه كمية؛ ليبيعها.

- آه! اسمع الشخص الذي يسكن في الشقة التي فوق شقتي، كان قد علّق حذاء، قبل ساعة ... لم أكن أعرف السبب ...

- آه، يبدو أن الكمية قد نفدت ... تعرف هذه الأيام رمضان، لا يتعاطى المسلمون الخمرة، فيبحثون عن الحشيشة ...

- آه ... قال نبيل، ثم لم يجد غير أن ينظر في الوجه اليائس لهذا الأشقر، ويقول له:

- حسن. أتمنى لك حظاً سعيداً ..

انطلق نبيل إلى البناية، فتح الباب، وصعد إلى الشقة عبر السلم القذر، قافزاً الدرجات اثنين، اثنين.

XIV

الحياة ليست سهلة جداً في سكاربيك، الحي الذي يقطنه المهاجرون الأتراك، كما أنها ليست صعبة!

- اسمع ... جاك بريل وُلد في هذا الحي، لا تنس ذلك ... والسوق الشعبي تحت النافذة، يمكنك من الصباح أن تسمع البائعة التركية بلكنتها الواضحة، وهي تصرخ :

دجاج مشوي، دجاج مشوي، بينما رائحة الأفوكادو والكليمونتين تصل إلى حجرتك.

هذا غير مهمّ، ذلك أن المدينة الفاضلة لم تتحقّق بعد، على الأرض، منذ أفلاطون إلى اليوم، أليس كذلك؟

هكذا قال نبيل أمام المرآة، وهو يحلق شاربه أوّل مرّة في حياته. مسح الشعر عن الشفرة بيده، ثم رجّها تحت صنبور الماء المتدفّق من الحنفية، نظر إلى وجهه من دون شوارب. غريب نوعاً ما، ولكنّ الأمر يمكنه أن يعتاد عليه. وهو يرتدي بنطلونه وقميصه، تساءل في نفسه: ماذا ينقص المدينة الفاضلة التي فكّر بها الفارابي قبل أكثر من عشرة قرون؟

- التناغم.

هكذا هي فكرة نبيل عن المجتمع، وقد أخذها أيضاً عن مفهوم الموسيقى عند الفارابي. فالصوت الواحد لا ينتج موسيقى، إنما الموسيقى تتشكّل من خلال الاختلاف بين الأصوات، لكنّ هذا الاختلاف بحاجة إلى

هارموني، إلى تناغم كامل، وإلا يتحوّل الاختلاف إلى نشاز، يُبطل الفكرة الأساسية التي تنخلق الموسيقى أصلاً من أجلها.

الطريق المؤدية إلى محلات بيع الآلات الموسيقية في السان جوس كان مزدحماً ذلك اليوم، العجوز الوقور شرح لنبيل مزايا آلة التشيللو التي لديه. لم يكن لنبيل المبلغ اللازم لشرائها بعد، ولكنّه ما يزال يجمع المال درهماً، درهماً. لا يهمّ. سيقتنيها فيما بعد. حياته تسير ببطء هنا في أوربا، لكنّه يحرز بعض التقدّم. على الأقلّ؛ حصل على اللجوء في بلجيكا، استطاع أن يستأجر شقّة صغيرة في سكاربيك، قرب شارع هاكت، الحي الذي يقطنه عدد كبير من المهاجرين الأتراك. لم يختره، ولكنّه أرخص من الأحياء التي يقطنها الأنديجن. كما أصبحت لديه صديقة بلجيكية. وهذا المهمّ: اسمها «فاني»!

*

تعرّف على «فاني» في حفلة قامت في بار يقع في البارفي دو سون جيل. في بار الميزون دو ببل. البار ذاته الذي كان يقرأ فيه لينين الصحف الروسية والفرنسية قبل الثورة. وقد تحوّل إلى بار برجوازي هذه الأيام، لم يزعج نبيل كثيراً هذا الأمر، فهذه مسيرة كل تقدّم. الثروة - في النهاية - هي هدف الثورة. دعاه إلى الحفلة رجل عجوز، خدم لسنوات وسنوات في بار آخر، فيما بعد تمّ رميه.

يوم الحفلة في الميزون دو ببل، وهو المساء الأخير الذي سيكون هذا العامل واقفاً فيه، مثل عمود النور؛ ليضيء البار، وإن كان يشعر بحاله مثل راقصة الباليه العجوز التي سترقص في ليلتها الأخيرة، وهي تعرف أنها ستُرمى في الغد في مخزن السقيفة مع المهملات. إلا أنه كان سعيداً، وقد سلّم عليه نبيل بحرارة ظاهرة، إلى جانبه تقف فاني. سلّم نبيل عليها أيضاً. بعد ثوان، دعاها إلى كأس موخيتو، فقبلت الدعوة. جلب الكأس، ووقف أمامها صامتاً مثل مسمار. انتبهت لقدومه، وهي تتحدث مع شخص آخر،

تركت الشخص دون أن ينهي حديثه معها، وتقدّمت نحو نبيل؛ لتتناول منه الكأس الذي جلبه لها:

- بصحتك! ووقفت أمامه وجهاً لوجه.

من جانبه تملّكه حبّ النظرة الأولى، مثل أيّ شرقي لا يحتاج في هذه الحالة أن يحسب أيّ حساب عقلي مع جسد نصف عار أمامه. أما هي؛ فقد جاءت من ثقافة ديكارتية حتى وإن لم تقرأ في حياتها سطراً لديكارت، محّصت الأمر يميناً وشمالاً. رأت فيه شاباً أسمر، وسيماً، موسيقياً موهوباً، يريد أن يندمج في مجتمعها بأية صورة، شخص حالم بالمدينة الفاضلة، شخص موسوس مثل عازف الغيوم، بشيئين اثنين: المدينة الفاضلة والأوركسترا. وهكذا شرح نبيل لها فكرته:

ما يبحث عنه في أوربا هو الأساس الهارمني الداخلي، لنقل إنها فكرة النظام التي تأخذ معناها الدقيق من الكلاسيكية، وهذه الأخيرة هي التي ستوصلنا إلى المدينة الفاضلة.

- لم أفهم، قالت «فاني» مبتسمة.

- اسمعي، سأشرحها بطريقة عملية، وعبّ نصف قدح الموخيتو في جوفه.

« يصبح المجتمع مثل أوركسترا، الوتريات هم الغربيون الشقر، يمثلون العمود الفقري في الأوركسترا مثل: الكمان، والفيولا، والكونترباص، والتشيللو. ثم اللاتينيون، ويمثلون الآلات النفخية، مثل: الأبوا، والفلوت، والكلارينيت، والباصون. ثم الشرقيون، عرب، أتراك، فرس، أكراد، فهم مثل الآلات النحاسية: ترومبيت، هورن، ترومبون، وتيوبا. وهنالك الأفارقة مثل: الطبول، والدرامز. وهنالك الآسيويون، مثل: بعض أنواع السيمبالات».

-لم لا؟ أليست هذه الصورة تؤكدها العلوم الإنسانية؟

في الواقع إن «فاني» التي وضعت كأسها على الطاولة، وأخذت تراقصه، ارتاحت كثيراً لهذه المعادلة، هذا النوع من التراتب الذي يضع الغربيين في المقدمة أراحها كثيراً.

وبين الأضواء في البار وكؤوس الموخيتو، وأنفاس سجائر المارلبورو، والثلج المبروش، وكلام الحب، وتكات آلة التصوير الرقمية، بهذا الجوّ، انخلق الحب.

كان يوماً قائظاً، أمسيةً خانقةً من أمسيات الصيف. رقصت «فاني» معه بتنّورتها الزرقاء، بجلدها الرقيق الذي يتوهّج تحت نور المصباح، بعنقها الذي يشبه الفلوت، بنظراتها الضائعة أشبه بنظرة طفل.

جلسا أمام بعضهما أشبه بطائرين في قفصين متقابلين. شعر أنه يحبّها من اللحظة الأولى، لم يعد بحاجة إلى برهان. شيء واضح تماماً، مثل قطرة مطر وراء الزجاج تكبر وتسيل مع الوقت. ولا تختفي أبداً. لقد شعر بتغيير كبير في كل شيء، إن بمشاعره، أو بجسده.

قال لها إنه لا يحبّ النساء العربيات اللواتي يختصرن وجودهن بالملابس الغالية الثمن، وهلس الشعر، وعلب الماكياج، وصبغ أصابع القدمين، وقراءة مجلات البوردة وحواء وسيدتي، والبحث عن أبناء البرجوازيين الوسيمين الذين يغازلون الفتيات في المولات الكبيرة.

قال لها إنه أحبها؛ لأنه وجدها جميلة، ناعمة، هشّة جداً، مثل لوحات الجماليين اليابانيين ذوي الألوان المدهشة، بينما العربيات مكتنزات، ألوانهن ضاربة للسمرة، ومربربات الأفخاذ، والصدور، بسبب أكل الحمّص. وأطلق ضحكة عالية.

*

شعر نبيل بأن حياته مع «فاني» ستكون على أفضل ما يرام. وربما

أفضل من أي وقت آخر. كانت رغبته بها كبيرة، كما أنها عملية أيضاً. ففي المنفى تتقلّص الأشياء، أو تتحوّل معانيها، مثلاً:

العمل يتحوّل إلى ثروة.

الحبّ يتحوّل إلى جنس.

الهوية تتحوّل إلى طائفة، أو دين.

الوطن هو شيء ندافع عنه دون أن نسكن فيه، ومكان نكرهه دون أن نغادره.

أراد نبيل أن يغيّر هذه النظرة، أن يغيّر هذا النوع من الحياة، دون أن يفقد نزواته وفانتازماته وهواجسه الأخرى.

سوف يكرّس نفسه لمحبة «فاني» ومساعدتها. سيكون إيجابياً في الحياة، وفي النظر إلى حياته في الهجرة بصورة أكثر إيجابية. أكثر من السابق بكل تأكيد. كشرقي سيتوصل معها إلى حد أكبر من التفاهم، اختلاف الثقافات، سيتفهّمه، كما أنها ستتفهّمه هي أيضاً. التفاهم ليس على الصعيد الجنسي فقط، وإنما تفاهم أكثر اتساعاً. إنه أمر بسيط جداً في العمق: سيتبادل الحديث معها، سيروي لها حياته، ويسمع منها حياتها، سيسألها عما جرى لها خلال النهار، وما يدور في رأسها. سيتحدّث لها عن الموسيقى، والفارابي، والمدينة الفاضلة، والغرب والهجرة.

هذه الأشياء جعلته يرتجف، يشعر بسعادة مضاعفة، لقد أحبّها بصورة أكيدة. شيء كان نبيل متأكداً منه، وحين طلب منها أن تقضي الليل معه في شقّته، لم تعتذر، وتقول له:

- لا، لا يمكن ... ليس من الليلة الأولى.

إنما ارتدت معطفها بسرعة، وضعت شالها حول رقبتها، حملت حقيبتها، وضعت يدها بيده، وذهبا سريعاً إلى منزله.

XV

في شقته الصغيرة في شارع آكت في سكاربيك أصبح نبيل و»فاني» معاً.

كانت شقة نبيل الصغيرة دافئة ومريحة مثل عشّ. جلس نبيل على الأريكة، وأخذ يقلّب أسطوانات موسيقية؛ كي يضع لها موسيقى مناسبة في الغرامفون. انتظرها، وهي تدخل الحمّام، كان قد أعدّ لها الصابون والمناشف، فتح الشوفاج، وأغلق باب الحجرة. خلع قميصه، وارتمى على السرير. خرجت فاني من الحمّام بالبنطلون، لكنّها عارية من الأعلى، رمت المنشفة، وارتمت إلى جانبه، وأخذت تعانقه. كانا قريبين من النافذة.

- هل علينا أن نبتعد قليلاً من النافذة؟ قال لها.

- لا عليك من النافذة، فكّر بي! لا تفكّر بالنوافذ والأبواب والحيطان.

مدّ لها شفتيه، ووضع يده على صدرها، فذابت بين يديه. كانت دافئة ورقيقة، كما لو أنها ستتلاشى تحت لمساته. وبعد بضع لحظات، بدءا بخلع ثيابهما. جلس على حافة السرير؛ ليفك حزامه، ويخلع بنطلونه. بينما رفعت هي جسدها، ومدّت يديها إلى الأسفل؛ كي تخلع بنطلونها وكالسونها، كلاهما مرّة واحدة. نظر نحوها، لم يكن ثمة ما ترتديه سوى جواربها النسائية. أرادت خلعهما، إلا أنه رفض. أوقفها من يدها، وأخذ يتفحّص جسدها بدقة أكبر. قال لها:

- إنك في الجوارب مثيرة أكثر.

ابتسمت له، وضمّته. أطبقت ذراعيها حوله ثانية. راحت يده تجوس

بتأنّ فوق بطنها، تملّصت من بين ذراعيه، وأمسكتْه من عنقه. فانقلب عليها، لقد أطبقا على بعضهما.

أمضيا ساعات في الفراش معاً، نبيل العاري الذي وقف أمام «فاني»؛ ليشرب قنينة ماء كاملة، بسبب تعرّقه، لم يحسب حساب الطبيعة، تلك اللحظة، ولا حساب الثقافة أيضاً. من الطبيعة أن «فاني» تطلق أصواتاً عالية أثناء الجنس، هذا شيء لا يمكنها أن تسيطر عليه، هي تصرخ وتصرخ بقوة، ليس لديها عوائق، ليس هناك من سبب يقمعها، طبيعتها التي تعيش فيها من دون حدّ. حينئذ لم يبق أحد في العمارة لم يسمعها. البعض أطلق ضحكة عالية لهذا الصوت، وهو يترقّب تحوّلاته:

صمت قليل لتغيير الوضع، ثم تنطلق الأصوات مرّة أخرى. البعض كان منتشياً ومثاراً أيضاً، لكنْ؛ كان هنالك مَن هو غاضب أيضاً، وهذا من حساب الثقافة والتقاليد بكل تأكيد، وما ما لم يحسب له نبيل حساباً.

عاد إلى السرير. واضعاً رأسه على صدرها، وأخذ يجوس بيده فوق جسدها. كانت عيناها تومضان عندما استلقت على ظهرها، مسترخية تماماً، ساقاها منفرجتان، لحمها نابض. لم يفه أحدهما بكلمة لدقائق عديدة. أشعلت سيجارتين، واحدة وضعتها في فمه، والأخرى وضعتها في فمها، وغاصا في السرير على روائح جسديهما والدخان المتصاعد والموسيقى الكلاسيكية الهادئة من الغرامفون. فراح نبيل يحدّق بسعادة في السقف حتى غفا، ونام.

*

شاهد نبيل «فاني» في الصباح تسير عارية. كان الصفاء مفاجئاً ومطمئناً؛ فقد رقد في السرير، وهو معجب بعلاقتها المتصالحة مع جسدها. كانت «فاني» تسير دون أن تضع على جسدها أيّ شيء، لا ستياناً، ولا كالسوناً. تدخّن، تأكل، تقرأ، وهي عارية. ترفع ساقها مرّة، تنزلها مرّة أخرى.

لم ير نبيل هذا العري المسالم، ولا حتى في أكثر أحلامه إيروسية، إنه عري نابع من جوهر الطبيعة، ومن روحها. انقضت ساعات كاملة في الظهيرة، ونبيل مستلق في السرير، دون أن ينطق كلمة واحدة، دون أن تتحرّك شفاهه بأدنى صوت. كان يتفرّج، وحسب. يتفرّج على «فاني» العارية، وهي تتحرّك في هذه الساحة الضيقة من الغرفة. لقد شعر نبيل أن هذه المشاهد التي أمامه تقلّص عالم الأحاسيس القديم الذي جلبه معه، تذلّها، تُجوّعها، تُفرِّغها من دمها. ثم تُغذّيها بكل الإثارات الممكنة، بل وتحقنها نوعاً من الحسية العالية. هذه الحسية لا تلغي الهيام ولا الفضول. فالجنس هنا عكس الشرق، لا ينمو في العتمة، إنه ينمو في الوضوح، يأتي ممتزجاً بالصوت، والحركة، والرائحة، والموسيقى، وربما الكحول، والأفيون.

ثم تساءل:

مَن قال إن جمال الجسد يهبط في العري؟

فكرة تافهة! العري هو تحقيق الواقعية، هو أشبه بالموسيقى الكلاسيكية من حيث تحقيقه لواقع كما هو في تجريده، إنها نوع من بقايا استطيقيا عصر النهضة، التي رأت في الفن العاري ذروة من ذرى البشرية التي يجب أن نسموا باتجاهها. وجوهر الفكر الكلاسيكي يكمن في القناعة العميقة في أن الحياة منطقية ومنسجمة مع الطبيعة.

*

في اليوم التالي كان نبيل قد عاد متأخراً في الليل مع فاني، كانا نصف مخمورين، نصف منتشيين. دفعت «فاني» حساب التاكسي، بينما سبقها نبيل إلى باب الشقة، وهنا المفاجأة، وجد جاره التركي بانتظاره. كانت شواربه السود مبرومة للأعلى، عضلاته لا تخطئها العين، فهو حدّاد، له قبضة خشنة حقّاً، يكرهها نبيل جدّاً؛ لأنها لا تناسب يد عازف تشيللو ناعمة.

قال التركي لنبيل بوضوح:

- سيدي، أنا لا أحاسبك على ما تفعله في شقتك. ولكنّ الأصوات التي تطلقها صديقتك، وبهذه الصورة، أثّرت كثيراً على عائلتي.

- لم أفهم! قال نبيل.

- وأنت تمارس الجنس مع صديقتك، فهي تطلق أصوات عالية، تسمعها كل العمارة، سامحني، أنا لديّ بنات مراهقات ومحجّبات، ولا يمكن أن نقبل بهذا الوضع.

لم يجب نبيل بأي كلمة، سوى أن قال له:

- أنا لا دخل لي، ليس أنا مَن يطلق هذه الأصوات .. إنها هي.

كانت «فاني» تقترب. حين رأى التركي أنها فتاة شقراء بلجيكية. قال له، وهو ينسحب.

- الأجدى أن تتكلم أنت معها، لا أنا.

سألت فاني:

- ما الأمر؟ ماذا يريد منك هذا الرجل.

شرح نبيل لها الموضوع:

«إن هذ الرجل يطلب منك ألا تطلقي أصوات عالية في أثناء الجنس، ذلك أن لديه بنات مراهقات ومحجّبات، وهو لا يحب أن يعرفن شيئاً عن هذه العملية».

استشاطت «فاني» غضباً.

- ماذا؟!... ماذا؟! صرخت بقوة في بهو العمارة؛ كي يسمع الجميع.

- أنا في بلدي، أصرخ مثلما أشاء، ومثلما أريد، ومَن لا يعجبه، فليأخذ

بناته إلى بلده، وهناك لن يسمعن سوى صوت الأذان، أما هنا؛ فأنا أفعل ما أشاء.

حين عادا إلى الشقة، قررت «فاني» أن تفتح جميع الشبابيك على مصراعيها هذه المرّة؛ كي يسمع مَن لم يسمع في المرّة السابقة، وليسمع بصوت أعلى مَن سمع بصوت واطئ في المرّة السابقة. تعرّت تحت المصباح، خلعت ملابسها ببطء وتلذّذ كاملين؛ لتضعها قطعة قطعة على الكرسي وسط الشقة، ثم رمت نفسها بحرية كاملة على السرير، مدّت يديها نحوه، وهي تبتسم، وقالت له:

- هيا، اخلع ملابسك، وتعال بسرعة، سأُسمع بناته اليوم أصوات لن ينسينها أبداً.

بعد لحظات، سمع كل مَن في العمارة أصوات «فاني» الصاخبة في الفراش، أصوات كانت تضرب حتى الجدران، وليس طبلات الآذان فقط.

XVI

في اليوم التالي، كانت «فاني» جالسة على حافة السرير، وهي تبحث في حقيبتها عن ورقة صغيرة، تريد أن تريها إلى نبيل.

- هل تعرف تينا؟

- لا أتذكّر مَن هي ...

- أوه، هل نسيت؟ تينا التي رأيناها مرّة في بار اللوكوك، وقد تحدّثت أنت معها عن الموسيقى ...

- آه، تذكرت ... صدرها كبير قليلاً ... سكسي ... ترتدي تنّورات ضيّقة تُبرز مؤخّرتها ...

- أوه، نبيل، أنت لا تتذكّر من النساء إلا هذه الأشياء ...

- لا، ولكنْ ... تذكّرتُ ... تذكّرتُها ... ما بها؟

- اسمع، تينا تدير - الآن - برنامجاً لموسيقى الحجرة في منزل للقرن التاسع عشر جنوب بروكسل، وقالت لي إنها ترحّب بك؛ لتنضمّ إلى الفرقة، لو كان لديك آلة تشيللو.

لكنّ نبيلاً من عام كامل يجمع الشيء القليل من المساعدات الاجتماعية التي يحصل عليها، ولم يتمكّن حتى الآن من شراء آلة تشيللو.

لذا؛ قالت له «فاني» إنها ستقدم له مبلغاً من المال، يمكنه أن يشتري هذه الآلة. ابتهج نبيل جدّاً. قفز نحوها، وأخذ يعانقها حتى دمعت عيناها

لمّا رأته مبتهجاً إلى هذا الحد، فمنذ أن حُطّمت آلته الموسيقية في بلده، وهو يحلم أن يحصل على واحدة ثانية.

*

أخذ المبلغ منها، وذهب في الحال إلى محل آلات الموسيقى في السان جوس.

حين رآه البائع العجوز فرح جداً، فمن مدة ليست قصيرة يقف هذا الشاب اللاجئ أمام هذه الآلة مثل عاشق، من أشهر، وهو ينظر، ويتحسّر، فدخل البائع العجوز بنفسه إلى الفاترينة، حمل الآلة الأخيرة، ووضعها في الصندوق الأسود، بينما كاد نبيل أن يرقص من الفرح. كان مبتهجاً جداً، ويتحدّث بكلام، لا معنى له، بسبب شدة جذله. وهذا انعكس على البائع العجوز الذي كان يرقب نبيل، وهو يقف كل يوم أمام الآلة عاجزاً عن دفع ثمنها. لذلك منحه خصماً خاصاً، أبقى عدداً من اليوروات في جيبه.

خرج نبيل عائداً إلى منزله، مرّ بمحلّ كبير للملابس بحثاً عن طقم أسود، مهيّئاً نفسه لحفلة موسيقى الحجرة التي وعدت بها تينا صديقة «فاني».

ثم قفل راجعاً إلى المنزل؛ ليضع آلة التشيللو في شقّته، ثم يلتحق بـ»فاني» في عملها في شوسيه دي واترلو، وربما سيذهبان هذا المساء إلى السينما في غاليري دي رين.

حين وصل قريباً من المنزل، شعر بشيء غريب هناك يجري. رأى جاره الحداد التركي مع شخصين آخرين يقفان عند باب العمارة. ما إن وصل نبيل حتى قبضا عليه. قال له التركي بوجهه الغاضب، وقد اهتزّت شواربه المجدولة مثل حبل:

- ما هذه التي تحملها؟

- آلة تشيللو!

- آه، تشيللو، وتريد أن تُسمعنا موسيقى تصويرية مع هذا الفيلم الإباحي الذي تقوم به مع صديقتك.

ضربة واحدة، أطارت له نظّارته في الهواء، وسقطت على الرصيف.

- ضربة حداد! قال نبيل في نفسه. الضربة التي جاءت على عينه أفقدته الرؤية تماماً، ثم استلم الشخصان الآخران آلة التشيللو؛ ليحطّماها، وينثراها خشباً على الأرض. بينما انفلت نبيل من قبضة الحداد ما خلا شالوت أطاره على درجتين من السلم، ثم نهض، وانطلق باتجاه الشقة، فتح الباب، واختفى في الداخل.

*

ذهب مباشرة إلى الثلاجة، تناول قليلاً من الثلج، ووضعه على عينه. خرج إلى الشرفة؛ ليرى مصير التشيللو، فرآه خشباً محطّماً على الأرضية، اختفى التركي ورفيقاه، ولم يكن هنالك من أحد غير البوّاب، وهو يجمع الحطام في كيس؛ ليرميه في محل أزبال العمارة.

الجزء الثاني

I

حينما يفكّر نبيل بينه وبين نفسه بالمدينة الفاضلة، وكيف تكون، يفكّر - أيضاً - بالناس المحيطين به.

مَن منهم يستحق أن يكون في المدينة الفاضلة؟! ومَن منهم لا يستحق ذلك؟!

كان عليه أن يخرج عدداً كبيراً من الناس من قائمته، وأولهم هذا التركي الذي ضربه وحطّم آلته الموسيقية.

كل يوم يصطفي نبيل من عامة الناس مجاميع متفرقة، يختارهم من ذوي الأجسام الرياضية، ومن موسيقيين، وفنانيين، وحرفيين، وفلاسفة، ونساء جميلات:

- آه، كما لو كانوا شباب سبارطة!

هكذا كان نبيل يريد أن يؤسّس مدينته الفاضلة.

على العموم، كانت هذه المحاولات الخيالية هي تمرين على معرفة الناس، فهم الناس، التعرّف على اللغة، وفضلاً عن تخمينه لحياة الناس، كان هنالك نوع من البحث في الكتب القليلة التي يتمكّن من الحصول عليها، وقراءتها، ومن قصاصات أوراق «فاني» الغامضة التي تكتبها مثل يوميات عن حياتها، وقد درجت على كتابتها منذ مراهقتها. ومع أن أفكارها لا تروق له بالعموم، ولكنّها في المقابل، هي أكثر اطلاعاً منه على السياسة المحلية في أوربا.

لكنْ؛ لا بد من القول، أن بعد المأساة التي حدثت له: ضربه من قِبل التركي، وتحطيم آلته الموسيقية، أصبحت «فاني» تهتمّ به أكثر مما مضى. ولتخفيف مأساته، أخذت تطلب منه أن يقضي أغلب الوقت في شقتها.

شقة فاني تروقه كثيراً، فهي في حيّ من الأحياء الثرية التي يقطنها في العموم بلجيكيون أصليون، أكثر مما تروقه شقته الفقيرة في حي المهاجرين الأتراك. شقة فاني جميلة، وقد وضعت صورته مع آلة التشيللو الصورة التي التقطها في بغداد، أيام كان يعزف في الفرقة السمفونية الوطنية وسط الجدار، بين خزانة قاتمة متينة القوائم ومنضدة مكتب من الخشب الراقي المصنوع في ايكيا. فهو يجلس كثيراً في هذا المكان؛ كي يطالع الكتب، وأحياناً يطالع صحفاً ومجلات قديمة، أولعت فاني منذ زمن بعيد بشرائها من سوق البروكير المختص ببيع الحاجات القديمة.

وقد وضعت فاني أيضاً؛ كي تحافظ على تناظر حقيقي مع أثاث الجدار المواجه: كرسيين ومنضدة مستطيلة؛ كي يضعا عليها الأشياء المتنوعة في المنزل، المقص، المرآة الصغيرة، ملقط الشعر، أدوات الكتابة، وفي الوسط، مقعد خشبي منجد من الجلد، يقع قبالة التلفزيون، يستخدمه نبيل - في الغالب - ليقضي عليه ساعات تفكيره الطويلة. ومنه يمكنه أن يرى إذا أمال برأسه إلى اليمين النافذة المطلّة على البارك، وحيث تمتد الرؤية في المدى المضيء إلى الخضرة الطرية. ومن هذه النافذة، يسطع وهج الشمس، وهو يدخل في الصباح إلى الشقة، يصبغ بلاط الأرضية بلون أرجواني مبهم، ويغمر الحجرة بتلألئ ذهبي أشقر، في الوقت نفسه.

*

أخذ نبيل يشعر شيئاً فشيئاً أن «فاني» تحوّلت - بمرور الأيام - إلى فتاة أكثر انفتاحاً معه من قبل، كما أن جمالها الجسدي أخذ يقترب من الكمال. لقد تحوّلت إلى آية لا تُصدّق في الجمال. في كل مرّة يراها يشعر أنها أصبحت بهيئة جديدة، وبجمال جديد. وقد أدمن رؤيتها في الصباح عند

الاستيقاظ، وفي الظهيرة حينما تذهب إلى البيت عائدة من عملها. وفي المساء عندما تعود متعبة من دروس اللغة العربية، التي أخذت تتعلّمها من أجله، ومن أجل أن تتعرف على ثقافته. وليلاً عاريين في الفراش؛ حيث يضاجعها على ضوء مصباح جميل، أو شمعة موضوعة في إناء كبير، تطلق رائحة جميلة يشتريها في العادة من محلات هيما الكائنة في رأس شارعهم، مع أصواتها العالية التي تطلقها دون أن تعبأ بأحد.

كان يشعر - أغلب الوقت - بالسعادة، وهي تقفز من جوفه إلى عمق السماء.

ولكنْ؛ في أحيان أخرى، يشعر بانقباض أو ألم في القلب، ذلك أن المدينة الفاضلة، المدينة التي تعيش على المساواة، والفضائل، والموسيقى لا تتحقّق حتى هنا في أوربا.

غير أن عزاءه الوحيد هنا في أوربا هي فاني، الشيء الذي ينعشه حقاً هو رؤيتها، رؤية عينيها اللتين تبعثان الفرح الكامل. عيناها اللتان تشعّان بهجة بعد كل لقاء، سواء أكان ذلك في المقهى مع أصدقائها، أو وهما عاريان في الفراش. لقد تحوّلت فاني - بالنسبة له - يده وقدمه، فهي التي تحل له كل مشاكله الإدارية مع الكومون، هي التي تتكلم مع البنك، ومع الشرطة، ومع الضريبة، وجميع الإجراءات الإدارية المعقّدة التي لا يفهم هو منها أي شيء. لقد أصبحت مثل مصباح كهربائي لدى بدوي يعيش في صحراء مظلمة، وقد ذكّرته هذه الحالة بأبيات قديمة، قد كتبها؛ كي يعزفها، تتحدث عن نظرة امرأة، تطلق النور دوائر شفافة وعميقة على رجل يتجمّد أمامها.

- أليست الميدوزا؟ سألته «فاني».

- أأأأأأأأ لا ... قال نبيل غير أنه لم يكن متأكداً. واستمر في قراءته لبعض من مقاطعها.

II

أخذ نبيل تلك الأيام يتردّد كثيراً على شقة فاني، وهو يفضّلها، من دون شك، على شقته، فعلى الأقل، لا وجود لتركي، هنا، يقطن في الطابق الأسفل من العمارة، ولديه بنات عذراوات، لا يصحّ لهنّ أن يسمعن صوت «فاني»، وهي تصرخ من اللذة على فراش الحب!

وبهذا ستصرخ هي كما شاءت، بل سيكون لها مطلق الحرية في أن تصرخ، أو تغني في فراشها، وفي شقتها، من اللذة، أو من شيء آخر، دون أن يضطر نبيل لأن يعتذر لأحد، أو يتخاصم معه أحد.

كما أن هنالك شيئاً أهم، فطالما سيقضي نبيل أغلب أوقاته في شقة فاني، إذنْ؛ ستكون ساحة فلاجيه Flagye قريبة عليه. كما أن مقهى Belga البلغا الشهير جداً في الساحة، سيصبح هو مكانه المفضل، من الآن فصاعداً.

*

أخذ نبيل - منذ ذلك الوقت - يتردد كثيراً على ساحة فلاجيه، وهنالك تعرّف إلى جميع أصدقاء فاني، والذين كانوا معها منذ الجامعة، وهم من روّاد مقهى « Belga بلجا». غير أنه - لسبب ما - غيّره إلى مقهى آخر في الساحة ذاتها، هو مقهى اللبيش بن Pitch Pin، يقع في الزاوية الأخرى من الساحة. مقهى جميل وواسع من الداخل، يطل على ركنين في الشارع. فيه نادلات من أوربا الشرقية، وهو أقلّ ازدحاماً من جميع المقاهي الكائنة في الساحة.

يقضي نبيل أكثر الوقت جالساً داخل المقهى، يحتسي البيرة، وهو يقرأ كتاباً، إما عن الموسيقى، أو عن المدينة الفاضلة، وأحياناً يجلس خارجه؛ كي يرقب حركة الساحة التي غالباً ما تكون مزدحمة بعد الظهيرة. فهو يحبّ التطلّع من شباك المقهى إلى الترامات، إلى الباصات، إلى الناس تحت جميع أنواع الطقس، وفي كل الأوقات.

أخذ نبيل يعرف بروكسل مثلما يقرأ كتاباً. يعرف وجوه الندل، وأصحاب المقاهي، الطالبات، الممثلات، العاهرات، والزبائن. بل وحتى رجال الدرك الذين يعملون في الزاوية الأخرى لمبنى الإذاعة؛ حيث تعرّف - أيضاً - إلى مذيعات، وسكرتيرات، بل تعرّف حتى إلى الذين يعملون في دورات المياه.

فهو يذهب كل يوم، مع فاني، أو وحده، إلى بارات ومقاهي بروكسل، لتبقى هذه المدينة الجميلة التي آوته حاضرة دائماً في روحه، وفي ذهنه، وحين يعود في الليل إلى فراشه غالباً ما تبقى المشاهد التي يراها محفورة بعمق، كأنها رسوم في كتاب يقرؤه، كلّ يوم، على فاني:

- هل رأيت هذه الفتاة التي دخلت اليوم إلى المقهى؟! يقولون إنها عاهرة.

- هل شاهدت هذا الشاب الوسيم؟ إنه يعمل في البعثة الأوربية! صديقته هولندية ... شاهدتها مرّة، وهي تدخّن الكنابيس!

- هل تعرفين أن النادلة طالبة في جامعة بروكسل الحرة، وهي تواعد عشيقاً أميركياً ثرياً، يكبرها بعشرين عاماً؟

*

أخذ نبيل يتعود شيئاً فشيئاً على الطقس البارد، على الشوارع الرطبة، على الأمسيات الممطرة. وحتى في وقت متأخر من الليل، كان لا يتردّد في الذهاب إلى ساحة فلاجيه، أو السان جيل، أو إلى اللي آل دو سون جيري؛ حيث: البارات، المقاهي، محلات بيع الأسطوانات، المكتبات.

يخرج في الليل - أحياناً - لشراء بعض الحاجيات، ويعود إلى منزله، أو يعود إلى منزل فاني، وذراعاه محملتان بالكتب والأسطوانات الفونوغراف. أو يحمل قنينة نبيذ، أو زهرة حمراء، أو بيضاء، يكون - عادة - قد اشتراها من هندي، أو من بنغالي، يطوف بمجموعة من الورود على الحانات.

وعند عودته، لا بد أن كل مَن يراه يعتقد أنه - ربما - تلقى حوالة مالية غير متوقّعة من عائلته، أو من شخص آخر من أقربائه الذين يعيشون في أمريكا. ولكنّ نبيلاً - في الحقيقة - يأخذ بعض المال من فاني، يشتري به بعض الأشياء المفيدة، مثل الكتب والأسطوانات، وتبقى في جيبه بعض الأوروات للشراب، ولا سيما البيرة التي يحب احتساءها بعد الظهيرة منذ وصوله إلى بلجيكا.

*

أحياناً، يغيّر نبيل أكثر من مقهى في الليل؛ كي يحتسي بعض الشراب. ومن النادر ألاّ ينتهي إلى مقهى اللوكوك Le coq القريب من البورصة، وما يزال في جيبه بعض الأوروات؛ ليجلس إلى جانب مجموعة من الطالبات الأجنبيات، أو القرويات، الباحثات - عادة - عن شخص مثل نبيل؛ كي يشتري لهن كأساً، أو كأسين من الشراب. ويدخل معهن في أحاديث مكرورة مثل كل مرّة عن التركي الذي ضربه بسبب الأصوات التي تطلقها صديقته أثناء تبادل الحب، أو يشرح لهن نظرياته الفذّة الخاصة بأوربا والمهاجرين والإسلاميين، ومن ثم؛ يتملّصن منه بسهولة بعد أن يعرفن أنه صرف آخر أورو في جيبه؛ ليعود إلى «فاني» التي تنتظره - في الغالب - في فلاجيه، وعيناها مثبتتان على الباب.

*

غالباً ما تقلق عليه هذه الفتاة الجميلة التي، حين يغيب عنها نبيل، تجلس في ركن قَصيّ من المقهى، بانتظاره. فالكل يعرف أنها فتاة جميلة،

جذابة، رقيقة جداً، من قرية والونية قريبة من مدينة وافر، اسمها والبي. تمضي الساعات بانتظار صديقها اللاجئ، الذي يغيب كل مرّة دون أن يُشعرها بذلك! فتضع كأس الشراب الذي تطلبه دون أن تمسّه، وترمق الرجال الداخلين الذين يمرون أمام طاولتها بنظرات طويلة مدقّقة، أو تتطلّع بهدوء من الواجهة الزجاجية؛ لعل نبيل يأتي، وهنالك الكثير من الشباب الذين يشدّهم الفضول؛ ليعرفوا مَن تنتظر! ويتقدم نحوها - عادة - كثيرون أيضاً، يومئون لها بالرأس، أو يبتسمون لها، لعلها تترك طاولتها، أو تنضم إليهم، ولكنْ؛ من دون جدوى.

إلا أن نبيل الذي يكون في العادة قد أمضى وقتاً ممتعاً، يعود إليها نصف مخمور، وما يزيد مأساتها عندما يسعى لمواساتها! فهو لطيف أيضاً، ويريدها أن تشعر بخير، ولكنّ هذا الأمر يزيد ألمها، ويضيق صدرها:

- لست بحاجة إلى أن تعتقد أنك أهملتني. لا تشعر بالذنب!

- هل أنت متأكدة؟

- طبعاً! لست مضطراً أن تقلق!

- أنا فقط أردت أن أشعرك بالحرية ... قال نبيل بشكل ناعم، إلا أن هذا أغضب «فاني» جداً.

- نبيل أنا لا أريدك أن تُشعرني بالحرية، أنا أشعر بها في كل وقت.

- أنت حرة بالتأكيد، ولكنّي - فقط - أردتُ أردتُك أن تكوني حرة.

- يا إلهي، أنت تفقدني أعصابي بالطريقة التي تتحدث بها، أليس لديك قضية أخرى تتحدث عنها؟!.

- أنت تتذمّرين مني؟

- نبيل، ألا تعرف كيف تسكت قليلاً، فأنت مخمور؟

- هل تعتقدين أني شربتُ أكثر مما يجب؟

وضع ذراعه حولها، ولكنّها كانت ضائعة تماماً، وكما وعدتْه بأنها لا تريده أن يشعر بالذنب بسببها، إلا أن هيأتها لا تُظهرها كما تقول، فهي ليست مرتاحة، كما أن وجهها يكشف عن ذلك الاستياء الذي تشعر به كلما يتركها نبيل في مقهى، ويذهب إلى مقهى آخر، مع نساء أخريات يتكلم ويغازل أحياناً.

III

وجد نبيل في الأيام الرمادية الغائمة، عندما يتغلغل البرد القارس في كل مكان، ضالّته في المقاهي الدافئة.

كان يتطلّع بسرور لقضاء ساعة، أو ساعتين، في مقهى البلغا قبل أن يذهب لتناول العشاء مع «فاني». كان الوهج الوردي الذي يغمر المكان ينبعث - عادة - من الطالبات اللواتي يتجمّعن قرب المدخل كل يوم تقريباً. وفي الليالي الماطرة، ينتشرن داخل المقهى. لا يعود المكان دافئاً وردياً، فحسب، بل تغمره رائحة العطر أيضاً. فقد كنّ يرفرفن تحت الضوء الخافت مثل فراشات جميلات. أما اللاتي لم يجئن مع صديق؛ فيتسلّلن ببطء، ويخرجن إلى الشارع؛ ليدخن، أو يتكلّمن مع مَن يمر من الشباب هناك، وبعد ذلك، يعدن؛ ليأخذن أماكنهن القديمة.

*

وفي يوم، ثمل نبيل تماماً، كانت «فاني» قد خرجت مع صديقة لها، وبقيت محفظتها معه.

قالت له:

- نبيل، سأترك محفظتي - هنا - في حقيبتي.

قال لها بثقة تامة:

- أوكيه، اتركيها طبعاً هنا!

كان يتحدث إلى طالبتين في الزاوية المعتمة، وكانت الخمرة تصعد

في رأسه. إلى جانبه، جلست مجموعة أخرى من خمسة أشخاص: ثلاثة شبان وعازفتين على الكلارنيت، وهكذا توسّع الحديث بينهم.

لقد التهم نبيل الجميع في الكلام، كان يتألق في الحديث، وكلما كان يتحدث، كان يشعر ببهجة كبيرة تصعد في داخله، وبحاجة أخرى إلى الشراب! فتناول محفظة «فاني» الموضوعة في حقيبتها، ذلك أن نبيل في ذلك الوقت كان مفلساً تماماً، وطلب شراباً للجميع.

- ثمانية كؤوس أخرى من البيرة والنبيذ!

- أنت جاد؟! قالت له إحدى الفتيات.

في الواقع كان أكثر الطلاب الجالسين في المقهى من الفقراء القادمين من القرى، وهم يعيشون في بروكسل، بلا مقدار كاف من المال، لذا؛ فقد أسعدهم كرمه. كما أنه أخذ لنفسه بيرة من النوع الثقيل؛ أي بدرجة عالية من الكحول، ومن تلك التي تُصنع في الأديرة.

أخذ نبيل يشرب بسرعة فائقة، وأحياناً كان يجلب لنفسه كأسين كبيرين من بيرة الدوفال، وسرعان ما يقضي عليهما. أما الكؤوس التي جلبها للطلاب؛ فقد جعلتهم جميعاً يصغون له بدرجة كافية، جعلت جميع الطلاب، ولا سيما الفتيات، ينظرن في وجهه مبتسمات ومجاملات، حتى وإن لم يفهم أحد شيئاً من عباراته الفرنسية المعقّدة، العبارات النخبوية التي ينطقها بلكنة عراقية، لم يتعود أحد منهم عليها.

وقد شجّعه هذا أن يطلب لهم أيضاً مجموعة من الكؤوس الأخرى، ومجموعة أخرى، وكانوا يشربون ويضحكون، وهو يتكلم بصوت عال عن أشياء ساخرة كثيرة، تخص المهاجرين، فأكثر نكاته كانت عن المهاجرين، ولا سيما حكاية التركي وبناته العذراوات، والتشيلو الذي تحطّم بأقدام الجيران المتشدّدين، مرّة في العراق، ومرّة في بلجيكا.

حينما عادت «فاني» وجدت شيئين:

نبيل الثمل، وقد تعته السُّكْر، وجعله يتطوّح على الطاولات، من طاولة إلى طاولة، وهو يعزم كل شخص، يصغي له على كأس بيرة، أو نبيذ، وحتى على كوكتيل.

ومحفظتها الفارغة إلا على القليل من البنسات.

حين دخلت، اعترتها الصدمة. لقد وجدت نبيل ساقطاً على الأرض، يصارع بين الطاولات؛ كي يقف على قدميه، ولا يتمكّن من ذلك، ولم يُهرع أحد لمساعدته.

لقد أحسّت «فاني» لحظتها بالذهول والرعب، من مشاعر اللامبالاة لدى الذين كانوا في البار، لم يمدّ أحد يده؛ لينقذه، وقد سمعت همساً من بعيد.

- اتركيه، إنه مجرد لاجئ، استولى على محفظة نقود صديقته، وأخذ يبدّدها.

IV

هل ثمة حياة هنا؟

كان نبيل يستمع إلى أغنية في المقهى، أغنية ليست عميقة المعنى، ولكنّها أغنية تتحدث عن رغبة فتاة أوربية في أن تهاجر من أوربا؛ لأنها لا تجد السعادة فيها.

- تهاجر إلى أين؟ قال نبيل مستغرباً.

لماذا تريد هذه الفتاة أن تغادر، بينما نبيل هو ذاته جاء هنا. ربما هي لا تحب أوربا، ربما خائفة من حرب نووية، ربما من مجرم متسلسل، من إطلاق نار في العتمة ... الكآبة التي رآها نبيل عند الأوربيين غير مبرّرة بالمرّة. هي صفة تعيسة، لازمة كاذبة، هي رغبة للهروب، هي تبرّم حزين، هي ضجر، هي فلسفة وجودية شوبنهاورية عدمية، لذلك كره نبيل في الموسيقى فاغنر.

ولكنّها - من جهة أخرى - رآها ترفاً، مزحة، هي كل شيء غير أن تكون حقيقية، أو واقعية ....

- لكنْ؛ نعم، كل الناس خائفة.

- خائفة من ماذا؟

- خائفة من الكارثة!

فكّر نبيل أن ليس للناس أيّ مكان يحتمون فيه، لا وجود للتعزية إلا

مع فتاة على سرير. بعد كل كارثة على البشر أن تمارس الجنس، تتخدّر، وتنام، وفي الصباح، تنهض إلى يوم جديد.

*

- غريب، حتى البلجيكيين يفكّرون بالهروب واللجوء!

شرب من كأسه، وهو يسأل «فاني» - ربما - متهكّماً:

- لماذا لا يذهبون إلى العراق.

- لأنهم يريدون بلداً أفضل. قالت «فاني».

يعرف نبيل جيداً أن «فاني» لا تحبّ أن تسمع رأيه ببلجيكا. لم تسأله يوماً كيف ينظر نبيل للكوميديين الذين يسخرون من البلد. كيف ينظر للمتشائمين الذين يرون أن بلجيكا تغرق في مستنقع سياسي، تتهشّم، أنها تتحطّم، أو أولئك الذين يصرخون كل يوم :

- في يوم، سوف لن ترى بلجيكا، أو:

- هل تعرف أن وضعنا السياسي خراء؟ أو:

- نحن أجهل شعب في العالم؟ أو:

- لا تظن أنك في بلد عظيم، هذا البلد لا شيء في الحقيقة.

لكنّ هؤلاء بلجيكيون هم الذين ينتقدون، وهم محقّون في ذلك، ثم أنهم مواطنون أصليون، خُلقوا في هذا البلد، وُلدوا فيه، وهم وهو واحد، أما بالنسبة له؛ فإن السؤال الذي يردده مع نفسه:

هل يحقّ له أن ينتقدهم أيضاً؟

هل يُسمح له - مثلاً - أن يتندّر من السياسيين البلجيكيين، أن يحتقرهم، أن

يقول أن هذا البلد هو زبالة، أن يطلق النكات على الوالونيين والفلامانيين، أن يقول إنه تعيس، وخائف، وأنه لا يأخذ حقه، وأن البلد تسيطر عليه العقلية المافيوية؟! أم هذه الأشياء هي ماركة حصرية بالساكنين هنا، وهو ليس له إلا أن ينظر، ويصمت.

شعر نبيل أن عليه في هذا البلد أن يتكلّم عن شيئين فقط:

أولاً المأساة والتراجيديا في بلده. ثانياً: السعادة التي حصل عليها هنا.

فمثلاً أن «فاني» صديقته الحميمة، يمكنها أن تقول إن الحياة تعيسة هنا، ولكنّها ستبتسم فقط، حينما تراه يتكلم عن سعادته، بخلاصه من البلد الذي كان فيه، ووجد السلام، والسرير المرتّب، والحمّام، والطعام هنا.

- آه، لو لم توجد بلجيكا، ماذا كان يمكن أن يحلّ بي؟

هذه الجملة هي الوحيدة التي تجعل البلجيكيين بلجيكيين، تجعلهم وطنيين ومحبّين لبلدهم. أما ملاحظته عن بلجيكا؛ هذا أمر غير ممكن، هم ليسوا بحاجة لها على الأقل. حتى في الموسيقى العرض الوحيد الذي تلقّاه هو أن يعزف مع فرقة من الهواة في يوم اللاجئ.

- أنت لاجئ؟

- أنا عازف تشيللو!

- ولكنّك لاجئ في بلجيكا.

قد غضب إلى الدرجة التي أراد أن يقول لمحدّثته:

- إن تكلّمنا عن الموسيقى، فإن بلجيكا هي اللاجئة عندي!

كان يحب أن يقول هذه الجملة بغضب، ولكنّه كتم أنفاسه، شعر نبيل ألا تكون من أوربا، فأنت لاجئ! عليك ألا تكون مثلهم، وعليك ألا تجاهر

بأيّ رأي. إنهم سيحبّونك إن مدحت بلدهم. ولكنْ؛ لو أردت أن تفعل ما يفعله البلجيكيون بكراهيتهم لبلدهم، وقلت مثلاً:

- ما هذا البلد الزبالة!

فإن لحظة صمت مرعبة ستحول بينك وبينهم. سيقولون لك:

- عليك أن تسعد في حياتك هنا، لو كنتَ في بلد آخر؛ لأعادوك للجحيم الذي هربتَ منه.

أو سيقولون لك:

- عليك أن تشكرنا، أليس كذلك؟! لا نعرف ما هو مصيرك، لو لم نأوك عندنا.

الكل سيصبح بلجيكا، ليس الحكومة فقط، إنما حتى سائق التاكسي:

- أنت سعيد هنا في بلجيكا؟

كما لو أنه يقول:

- أنت سعيد عندي في بيتي.

- سائق التاكسي سيشتم أمّ بلجيكا أمام بلجيكي آخر.

قال نبيل مرّة لـ»فاني»:

سيشتم سائق التاكسي بلجيكا من تاريخها إلى سياسييها إلى ترابها ... فريتها وغوفرها وحتى بيرتها وشوكولاتتها. ولكنّه مع اللاجئ، لا يمكن ذلك، فهو سينتظر ما سيقوله الأخير. وما سينتظر منه، هو أن يقول له:

- أنت لا تعرف قيمة بلجيكا ... إنه أعظم بلد على وجه الأرض ... آه، بلجيكا، ماذا سيحلّ بي لو لم تفتحي ذراعيك لي.

إذنْ؛ لا يُسمح لنبيل أن يتأفّف من الجوّ الذي يغزوه الغيم طوال العام،

ولا من الفريت، ولا من الغوفر، ولا حتى من الصداع الذي يسبّبه الجوّ المعتم.

*

مع ذلك، علينا أن نقول، إن ما كان يشغل نبيل ذلك الوقت هو ليس البلجيكيين، أبداً، لا ما يرونه، ولا ما يرجونه! كان يعتقد دائماً أنهم على حق. أو ليفعلوا ما يشاءون في بلدهم. ولكنْ؛ ما كان يشغله حقاً هم المهاجرون. فمشكلة المهاجرين مع المهاجرين معروفة. ولكنّ الأمر عند نبيل أخذ يتضخّم شيئاً فشيئاً، لقد أخذ الأمر يتورّم كثيراً، يصبح عقدة، لا يمكن حلّها، شيء يستعصي على الشفاء. بل وصل الأمر به أن أصبح جاهزاً للاعتقاد أن حياته هنا تتحوّل بسببهم إلى جحيم، وبسببهم أنه لا يستطيع الوصول إلى المدينة الفاضلة.

٧

إن فكرة الهارموني لم تفقد بريقها بعد في رأس نبيل. كان جالساً في شقة «فاني» في حي أوكل. وهو يفسّر الأمر كالتالي، إن الهارموني هو أساس الموسيقى. إن وجود صوت نشاز بين هذه الآلات التي تصنع الموسيقى سيحقّق انعدام الهارموني، وبالتالي أن كل البناء سينهار.

يستنتج نبيل من هذا أن وجود المهاجرين في بلجيكا هو أساس فقدان المجتمع للهارموني. ببساطة؛ لأنهم من ثقافة مختلفة. هم يشكّلون نوعاً من الهارموني في مجتمعاتهم، حين كان بينهم؛ أي حينما كان في بلده، كان يشكّل صوتاً نشازاً، كان يهدم التناغم في مجتمعاتهم.

- أنا كنتُ النغمة الوحيدة الشاذّة ... كنتُ الصوت الذي يهدم تناغمهم، ويهدم الهارموني في أغنيتهم ... هل تفهميني؟ لذلك هدّدوني، وضربوني ...

- ألا ترين الأمر كذلك؟ وحين خرجتُ وهربتُ، فإنهم أصبحوا بالتأكيد أفضل حالاً!

ثم شرح نبيل لفاني بالتفصيل كيف فعل جيداً عندما غادر بلده، فحين ترك البلاد، وجاء إلى أوربا، ذلك ببساطة؛ لكي يأخذ ذلك الهارموني، الموجود في البلاد، نصيبه من الائتلاف. بينما هو وحياته ينسجمان بشكل كليّ مع نوع الهارموني الاجتماعي في أوربا.

- أنا هنا أجد نفسي أكثر تآلفاً ... أكثر انسجاماً مع هذا المجتمع ممّا كنتُ عليه هناك ... كنتُ أشعر بأني غريب هناك أكثر من شعوري

بأني غريب هنا ... بل أقول لك إني لا أشعر هنا بأني غريب أبداً. كيف تفسّرين ذلك؟

النتيجة التي قالها نبيل وبوضوح شديد:

إن وجود المهاجرين في أوربا يُعدّ صوتاً نشازاً! إذنْ؛ عليهم الرحيل.

هذه الفكرة أخذت تضرب كالرصاص في رأسه. بينما بدا على «فاني» الانزعاج الواضح منه. فأراد أن يخفّف عنها هذا الأمر بالطريقة التالية:

- اسمعي، لا أقصد من الأمر أنْ يكون عِرقيّاً ... إنما بالأحرى هو انفصال ثقافي.

- لا أفهم ... ماذا تعني ...؟ قالت له هذا بينما كانت ترتدي قميصها من دون ستيان.

- أقصد أن العالم ينقسم إلى مكانين جغرافيين، وبالتالي ثقافتين، فهنا نحن، أما هم؛ فهم هناك، مَن يؤمن بنا، فليأت لنا، مَن يؤمن بهم، يذهب لهم.

لكنْ أن نبقى هنا وهناك ... هذا يعني أن أصواتاً نشازاً كثيرة تكون بينهم، وسيكون عندنا - أيضاً - أصواتاً نشازاً ... وهذا هو سبب الفوضى في العالم.

- أوه، يا نبيل، هل رأيت كالسوني في مكان؟

- إنه هناك جنب السرير ...

سارت «فاني» عارية، تبحث عن كالسونها، بينما هو تبعها في حديثه:

- اسمعي، أنا جئتُ إلى الغرب بحثاً عن المدينة الفاضلة، حلم من أحلام الفارابي الذي أراد أن يجعل كل شيء معيارياً، وبناءً عليه، ستكون المدينة التي يخلقها بموسيقاه مدينة فاضلة. هل تسمعيني؟

- نعم، أسمعك! قالت، وهي تشمّ كالسونها قبل أن ترتديه.

- أوه، هذا الوسخ، أنا أبحث عن النظيف، لا أعرف أين وضعتُه! وراحت تبحث عن كالسون ثان في الدولاب، بينما سار هو وراءها.

- اسمعي! أليست الموسيقى معيارية؟ إذنْ؛ ستؤسّس من نموذجها معياراً عمرانياً حضارياً سكانياً، بكل ما تحمل من قيم سامية ... هكذا كان يؤمن الفيلسوف العربي، وهو يتكلم عن أفلاطون وأرسطو في المدينة الفاضلة!

ارتدت «فاني» كالسونها وبنطلونها. وقالت له:

- اسمع انت! اذهب إلى المطبخ، وكل قطعة البيتزا التي وضعتُها لك في الفرن، ولا تشغل بالك بهذا الأمر، وإلا ستحترق البيتزا، كما في المرّة السابقة ... ثم طبعت على خدّه قبلة، وخرجت مسرعة.

VI

إنها عادته. فنبيل يجد دائماً سبباً غير متوقّع لنكباته. طلبت منه «فاني» التي كانت تعرفه خيراً من أي شخص آخر، أن يحمل المزهرية وما فيها من أزهار الصباح الذابلة، ويستبدلها بجديدة، وأن يسقي النباتات في المزهريات. عاد نبيل إلى الاستلقاء على السرير. أغمض عينيه، وعادت «فاني» إلى القراءة بالنبرة السابقة ذاتها. وحين بدا لها أنه قد نام، وضعت الكتاب على الكوميدينو، وطبعت قبلة على جبهته المتّقدة من الحمّى، وهمست له:

- ستتحسّن، يا صديقي، سوف تتأقلم مع وضعك الجديد، ستتعلّم كيف تعيش في مجتمع مختلف ومتنوّع، لا يمكننا أن نكون كلنا من لون واحد.

حينها فزّ من نومه، فتح عينيه، فتح فمه، أراد أن يتكلّم، إلا أن «فاني» وضعت إصبعيها على شفتيه، إشارة لتهدئته.

- اش ... نم، يا حبيبي، وسوف تجد نفسك في الصباح، في أحسن حال.

*

صباح كئيب ... ذلك اليوم حين استيقظ نبيل، وشعر بكثير من المرارة. لا شك في أن الاقتراب الجسدي من «فاني» يضاعف العامل العاطفي، إلا أنه لا يمكنه تمضية الوقت كله في شقتها، أما ممارسة الحب في شقته؛

فبسبب التركي وبناته العذراوات، وبسبب الأصوات التي تصدرها فاني؛ فقد أصبح الأمر شبه مستحيل.

ماذا يصنع؟ لم يتمكّن بعد من شراء آلة تشيللو؛ ليواصل عمله في الموسيقى، لا بد من اختراع شيء آخر. لا يمكن إيجاد مدينة فاضلة ... بل شيئاً فشيئاً، أصبح يدرك أن المدينة الفاضلة التي كان الفارابي يتكلم عنها هي من التخيّلات، نعم من التخيّلات فقط! لكنْ؛ لا يمكنه - في الوقت ذاته - الحكم بالسخف على تلك التخيّلات.

برودة بالغة الكمال، وعدم مبالاة إزاء ما يحدث هو بصورة أو أخرى، شيء سيّئ، أليس كذلك؟

الأمر أبعد من كونها مجرد تخيّلات. ومرّة أخرى خامره الشك الذي صار روتينياً تقريباً بقدرته على التغيير. ولكنّه شعر - من جهة أخرى - أنه أسير حلم شبه معقول، وبصورة متسلّطة. التغيير!

وأخيراً، أوصله انقياده للتجوال إلى جادة واترلو التي تبدأ - عادة - من الفوريه دو كامب. وهكذا استسلم للسير على رصيف عريض، وتفكير صاخب، ومنسجم مع صباح جميل كهذا الصباح.

*

كان هناك في الشارع نبض متوحّد وصاخب ليوم عمل طويل، وعدد كبير من السيارات تجوب الشوارع. وأخيراً، توقف ساكناً أمام بوّابة أسواق الدليز. دخل؛ ليشتري علبة سجائر. عدّ الأوروات في جيبه، فوجد أنها تكفيه لشراء علبة كبيرة من البيرة أيضاً.

كان انعكاس الضوء شديداً، إلى حدّ شعر معه أنه يوم مشمس رائع في بروكسل. وهج الشمس يتدفّق إلى ساحة فلاجيه. تأمّل الترامات لحظة، وهي تمر من أمام مقهى البلغا، وصل إلى منتصف الشارع، وسط الضوء

الشديد، قبالة الظلّ الذي يصل إلى الساحة، وجد شاباً أفريقياً يجلس على المصطبة مع فتاة شقراء، وكانت فردتا حذائه تلمعان مثل صفيحتين معدنيتين مصقولتين.

وجد نفسه يتقدّم ببطء، خطوة بعد أخرى، حتى بلغ نقطة قريبة من الأفريقي الجالس مع الشابة الشقراء. ووجد نفسه يفتح شفتيه؛ ليحيّيه، والآخر يرد على تحيّته. ووجد نفسه عندئذ جالساً على مصطبة حجرية قريبة منه، وفي يده سيجارة، وعلبة بيرة.

VII

في اليوم التالي، استيقظ نبيل من النوم متأخراً. فاني خرجت من المنزل إلى العمل مبكراً.

جلس على الأريكة متعباً تقريباً. فكّر كثيراً بالمدينة الفاضلة. بالهارموني، بالتشيللو الذي ينتظر من «فاني» أن تتمكّن من شراء واحد آخر له؛ كي يستطيع أن يظهر مهارته للبلجيكيين. أن يتمرّن. أن يفكّر بشكل صح. أن يؤلف مقطوعته التي حلم أن يقدّمها للناس.

قرأ الملاحظة التي كتبتها فاني له على الجدار.

حبيبي

وضعتُ لك قطعة كبيرة من بيتزا نيباليتوني في الثلاجة،

الأمر لا يستغرق كثيراً في الفرن،

لا تنس أن تبعث سلّة الغسيل إلى المغسلة ... وضعتُ لك الثمن في الدرج.

قبلة

فاني

*

استدار نحو المطبخ، أخرج قطعة البيتزا نيباليتوني من الثلاجة، ووضعها في الفرن، ثم صبّ لنفسه كأس كوكا كولا، وراح يبحث عن الكاتشاب. في

الدولاب غير موجود ... ثم بحث في الثلاجة لم يجده، بعدها تذكّر أنه قد أخذه معه بالأمس إلى الشرفة؛ حيث أكل الهمبرغر هناك.

حين ذهب إلى الشرفة، شاهد صحيفة لوسوار مفتوحة على خبر مكتوب بالبنط العريض عن مظاهرة لليمين المتطرف في شوارع بروكسل، بينما الشرطة تحذّر من أن السلفيين ينوون القيام بمظاهرة في اليوم ذاته ضد مظاهرة اليمين.

من هنا فكّر نبيل:

لماذا لا يشارك في هذه المظاهرة؟ يجب أن تأخذ أفكاره حيّزها من العمل، وأن لا تبقى أسيرة لشقة «فاني» الضيقة في حي أوكل. حتى هجرته إلى الغرب كانت واقعية، ألم يقل الفارابي إذا وجد الشخص الفاضل نفسه، في مدينة فاسدة، عليه أن يهجرها إلى مدينة فاضلة؟!

إن لم تكن موجودة في زمانه، فإنه سيعيش غريباً، وفي حياة رديئة، الموت فيها أفضل من الحياة! وهكذا جاء هنا إلى أوربا... مدينة فاضلة! لكنّ المشكلة أن المهاجرين هم الذي يدمّرون فضائلها! هؤلاء سيحوّلونها إلى أرض فساد وفوضى. الطبقة الرثة بتعبير ماركس! الصفالة بتعبير الفارابي! حيث وصفهم الفارابي بأنهم جماعة الفساد، والفوضى، والتقتيل، والمعاندة، والهزل بعيداً عن العمل في المدينة الفاضلة.

*

قرّر نبيل الذهاب إلى البارك رويال؛ حيث مظاهرة اليمين المتطرف التي تطالب بطرد المهاجرين من البلاد. في الواقع لم تكن الفكرة التي لدى اليمين واضحة في ذهن نبيل مطلقاً. فهو لم يسبق له أن ناقش أحدهم، أو اطلع على أفكارهم. صديقته «فاني» يسارية، لديها كراهية لتصرّفات المغالين من الطرفين، ولم تكن يوماً تحمل أي أحقاد على المهاجرين،

فصديقها السابق كان أفريقياً، ومرّة كانت مع تركي، وكان لها في يوم صديق مغربي.

الأمر مع نبيل أخذ طابعاً عدوانياً هذه المرّة. فخرج من منزله في أوكل، واتخذ طريقه في الشوسيه دو واترلو ليمر بالبارفي دو سون جيل، ومن ثم؛ يأخذ الباص، ويلحق بالمظاهرة. يسير في الشارع، وهو ينظر كل شيء، ويتفحّصه، يركّز نظّارته بإصبعه على عينيه، ويفحص الأشياء بعمق وقوة. (نظّارته من ماركة برادا ذات إطار معدني مذهّب ومدوّر، تشبه نظّارة المايسترو الذي يظهر في الصورة أمام الأوركسترا الموجودة في محل الآلات الموسيقية في السان جوس). إيماناً منه أن فحوى الفكرة هو خلق عالم جميل، عالم متناغم، خالٍ من الأصوات النشاز.

*

وصل المظاهرة. كانت الأعلام الصفراء كثيرة، الوجوه مصبوغة. بعضهم لوّن شعره بألوان مختلفة. البعض نقش على جسده وشوماً عبارة عن شتائم وتوعّد ضدّ المهاجرين. اللافتات المرفوعة مكتوبة بخطوط، تنتمي للقرون الوسطى. كل هذا لم يمنع نبيل من الركض بمرح ظاهر، بخفّة، بابتهاج، شيء أشبه باللعب؛ ليكون في وسطهم طالباً منهم، بالتهذيب الذي عُرف به، أن يحمل إحدى لافتاتهم.

وجه نبيل ... وجه مهاجر، لا تخطئه العين، هو وحده الذي يعتقد أن الإيمان هو الذي يوحّد الناس لا ميثيولوجيا الأعراق، ولا ميتافيزيقيا الألوان، ولا الملامح.

هكذا أصبح نبيل وسطهم، أصبح بينهم تماماً.

- هااااا صرخ أحدهم بقوة، وأشار بأصبع موجّهاً إلى وجهه.

كانت الوجوه الغاضبة أكبر من أن يستوعبها. لقد شاهد بعينيه الشرّ

من العيون التي أخذت تقدح في وجهه. كان أشبه بفريسة دخلت في ميدان مجموعة من الضواري، لقد تلقّفته الأيدي من كل مكان، أيدي المتظاهرين. أيدي رياضية متصلّبة خشنة. حتى النساء قفزن نحوه.

ما الذي فهموه من الأمر؟

كان عليه أن يشرح لهم، أن لون البشرة، المظهر والهيئة لا علاقة لها بالأفكار.

لكنْ؛ لا وقت لليمينين للإصغاء. الأمر محسوم، بالنسبة لهم. هو من الأعداء.

- ما الذي جاء بك إلى بلدنا، أيها العثة؟

- سنُرجع الجرذان إلى جحورها!

امرأة تصرخ في وجهه:

- حثالة ... حثالة ... أنتم حثالة!

امرأة جميلة، كان من الممكن أن يدعوها نبيل على كأس من البيرة، لو رآها بالأمس في المقهى. لها صدر صلب من هذا النوع الذي يمتدحه في البلجيكيات، وسيقان رشيقة وطويلة، ومؤخّرة من النوع الذي لا يشيح عينيه عنها. لكنّها هوت على رأسه بطرف اللافتة التي تحملها، والمكتوب عليها:

- اخرجو من بلدنا!

لقد تجمّعت المظاهرة كلها - تقريباً - على نبيل، من أجل سحقه وتهشيمه، وهو بينهم عرف أنه مقتول، لا محالة، كان يتصوّر أن السبب هو سوء فهم، لا أكثر.

- هل تعرفون نظريتي عن الهارموني؟

مَن سيصغي؟ فالأمر يتعدّى الحديث، بالنسبة لهم. كان الموت أقرب له من التفاوض، أو شرح نظرياته عن الفارابي والهارموني والمدينة الفاضلة.

لقد شعر أنهم فتكوا به، لا محالة: فلم يعد ير سوى الوجوه الشقراء الغاضبة، الأفواه التي تتلوّى، وهي تلوك الكلام لوكاً، والأعين التي تعبّر عن الحقد، وتختزن شراً قاتلاً. لقد أدرك أن الفتك به وقتله وتمزيقه أمر ثابت: الركلات التي على الصدر، وفي البطن تؤكّد أنهم حسموا أمرهم. ولكنْ؛ من بين الأقدام كان ينظر إلى مجموعة كبيرة من اللّحى والملابس البيض القصيرة التي تميّز السلفيين قادمة باتجاهه.

- آه ... السلفيون قادمون!

لا بد أنهم ظنّوا أن أحد أخوتهم في الدين سيُسحق من قِبل المتظاهرين اليمينيين، إنها حرب الدفاع عن أحد الأخوة في الدين، وقد أصبح فريسة بين أنياب الذئاب الكفّار.

معقولة يتحوّل السلفيون إلى ملائكة رحمة لنبيل.

كل شيء يمكن أن يحدث هنا، في أوربا!

لم يكن لنبيل غير هؤلاء السلفيين الذين جاءوا لإنقاذه، لقد دخلوا بالعصي والسكاكين دفاعاً عن هذا البطل. وقد أنقذوه فعلاً.

لقد جرّوه إلى خارج منطقة اليمينيين المتطرفين. كان نبيل يلهث، يقترب من الموت، من انقطاع النفس. صامت. ليس حزيناً، ولا مبتهجاً. هو صامت، وحسب. ينظر بعينيه دون أن يتفوّه بكلمة. الوجوه التي حوله هي المبتهجة، اللحى السود، الوجوه السمر، الدشاديش البيض، الصدور الصلبة القوية، الكلمات الخارجة من البلعوم بقوة، مخارج الأصوات العنيفة، كلها تحيط به، وتتحرك أمام عينيه، كما لو كان شريطاً سينمائياً مصوّراً، وليس حقيقةً.

لا شيء ... سوى أن السلفيين اعتبروا نبيل بطلهم.

حملوه على الأكتاف، وطافوا به في مظاهرة السلفيين. نبيل الذي لم يعد يرى في عينه اليسرى، بسبب إحدى الركلات، يرى السلفيين بعينه اليمنى، وهم يهتفون له، بوصفه بطلهم، بطل المسلمين الذي هاجم مظاهرة اليمينيين بشجاعة فائقة.

هكذا حملوه على الأكتاف، وضعوه في إحدى سياراتهم، ونقلوه إلى منزل أحدهم في شوسيه دي إكسل.

VIII

في منزل أحد السلفيين في الشوسيه داكسل، اضطجع نبيل على الأريكة، خلفه راية الله أكبر سوداء كبيرة على الحائط. وضعوا أمامه صحناً كبيراً من الفواكه، وقنّينة ماء، كان بحاجة حقيقية إلى علبة بيرة! صافحوه جميعهم. كانوا ثلاثة أشخاص يشبهون كثيراً المجموعة التي أوقفته في بغداد، وضربته، وحطّمت آلته الموسيقية. سلفيون على الأرجح، لكنّهم يختلفون عن التركي الحدّاد ذوي الشوارب الصفراء التي تشبه حبلاً مجدولاً.

- من أصول مغربية؟ هكذا بدأ يخمّن أصولهم.

نعم، على الأرجح. لم ينطقوا كلمة واحدة من العربية. يتكلّمون بفرنسية متقنة، جعلته يغار قليلاً.

هنؤوه على ما قام به، من أجل الإسلام.

- هنيئاً لك، يا أخ، أجرك عند الله كبير.

لم ينطق أمامهم بكلمة واحدة. كان ينظر بحذر، وهو صامت تماماً. ظنّوه مرعوباً من هول الصدمة. أية واحدة منهن؟ صدمته من اليمينيين المتطرفين الذين كادوا أن يفتكوا به؟ أم صدمته من السلفيين الذين أنقذوه؟

بعد دقائق، خرجوا جميعهم؛ ليكملوا معركتهم مع اليمينيين.

*

كان ذهن نبيل خالياً تماماً. رن هاتفه، كانت «فاني» هي التي تتصل. لم يجبها. كان متعباً جداً. نام ساعة، ثم استيقظ، إلى جانبه رموت كونترول، وأمامه تلفزيون. أشعل التلفزيون، وأخذ يبحث عن قنوات إباحية. حصل على واحدة، ابتسم.

شعر أن تعلّقه بالأفلام الإباحية هو نوع من تعلّقه بالواقعية. ذلك أن فيلم البورنو هو نوع من تحقيق آنية حقيقية؛ حيث يصبح ما هو مشاهد، ها هو الآن، في هذه اللحظة، وهو يحدث.

لا يفقد الجنس قطعاً سحره حينما يكون صريحاً، بل يصبح مصدر إزعاج. مع ذلك ليس بالضرورة أن يخلط مع العاطفة، أو الرغبة، أو الأهواء ... إنما يمكن للشبق، أن يتغيّر لونه، نكهته، إيقاعاته، قوته، من خلال تجريده مما هو خيالي عاطفي رومانسي، وعرضه في صفاته المميّزة المدهشة، في تحوّلاته الحاذقة، في عناصره المثيرة.

*

أمضى نبيل اليوم كله في منزل السلفيين. في الصباح، خرج عائداً إلى منزله.

سار في الشارع. كانت هناك فكرتان قاتمتان في ذهنه، واحدة عن أفلام البورنو والأخرى لشراء تشيللو جديد؛ ليواصل عمله في الموسيقى، من دون تنظير.

مرّت في ذهنه أفكار أخرى عن «فاني». كان الشارع يقوده - دائماً - في اتجاه محلات بيع الألبسة، وكان إيقاع أفكاره يخضع بطريقة ما لمجموعة من التحوّلات المتوالية. أدرك أن مسيرته الصغيرة في الأيام السابقة قد آلفته مع المظهر العام للحياة في أوربا.

ما معنى الحياة، بالنسبة له؟

شيء لم يتحدّد بعد! لكنْ؛ عبر الموسيقى يمكن أن يصل إلى بعض التآلف الكائن خلف التناقض الحي في المظهر العام للوجود. هكذا إذنْ؛ فالأماكن الحيوية والفنية في المدينة، وبعض المقاهي والمطاعم، تكشف له عن معنى آخر للحياة.

- إن التعدّد والاختلاف بين البشر تمحوه الأضواء الخافتة، والخمرة، تقريباً! ويصبح الجميع في ثقافة واحدة!

مناظر كثيرة متناقضة تتحول إلى مناظر متآلفة. وقد قابل بداية هذا التآلف بإحساس من الحذر. لكنْ؛ بعد فترة، تفهّمه. فَتَحْتَ مظهر تعدّد ألوان المدينة وتناقضاتها واختلافاتها، هنالك الإشارات الداخلية للحياة تطلّ بصورة أكثر حميمية، وهي أكثر تآلفاً، لكنّها لا تظهر إلا خلف مجموعة من التناقضات الماديّة.

*

شاهد في شوسيه داكسل مراسم تشييع فخم، عجوز مستلق في التابوت على عربة الموت المغلّفة بالمخمل. زهور وأكاليل كثيرة جداً. هنالك حشود كبيرة من الناس على محلات الملابس، بسبب تنزيل الأسعار.

مرّ بمحلات زارا. توقّف عند فاترينه؛ ليرى سعر طقم أسود، من الممكن أن يرتديه، ويشارك في حفلة موسيقى الحجرة.

اتصل بـ»فاني»، لم تجبه. مرّ بمحطة مترو البورت دو نامور. مرّ تحت أبنية عالية. عبر الاختناقات المرورية، وهو مستمر بالتفكير، مرّ تحت جسر مشاة. عبر شوسيه دو وافر. سار في الأزقة الخلفية. دخل إلى متجر لبيع الكتب - فيلغران، شاهد صورته في صحيفة لوسوار محمولاً على أكتاف السلفيين.

تحت الصورة:

أحد السلفيين المهاجمين لمظاهرة اليمين المتطرف.

ابتسم، وخرج من المكتبة.

دخل مقهى إنترنيت؛ ليتفقد بريده الإليكتروني. عبر الشارع بسرعة مع أن الإشارة الخضراء لم تشتعل بعد. مرّ بمحل بيع الآلات الموسيقية في السان جوس، وجد مكان التشيللو فارغاً، ثم اختفى قبل أن يراه البائع العجوز.

مرّ بأكشاك خضروات عبر الشارع مقابل شقته. اشترى فاكهة، وصعد سلم العمارة. فتح الأدراج في المطبخ، والتقط سكيناً، قشّر برتقالة، ثم فتح باب الشرفة، وضع قشورها في السّلّة.

أكل البرتقالة، وقرّر أن يستحمّ.

نبيل عازف التشيللو، في بغداد، موسيقي حالم، رومانسي، يؤمن بالموسيقى الكلاسيكية والبورنوغرافي وقدرتهما على تغيير العالم. لكن، في يوم من الأيام، وأثناء عودته إلى منزله، وآلته الموضوعة في صندوق كبير على ظهره، يجد نفسه وجهاً لوجه أمام مجموعة متشددة، فيحطموا له آلته الموسيقية ويقوموا بضربه وإهانته. فيقرر نبيل الهجرة إلى أوربا، والبدء بحياة جديدة مع الموسيقى، والحب. غير أنه هناك، وهو يعيش مع أفكاره الفلسفية ولا سيما عن الهارموني، والمدينة الفاضلة عند الفارابي، والفن العاري، والكلاسيكية في الفن، وقصة حبه مع فاني، الفتاة الجميلة التي يعيش معها علاقة جسدية شفافة، يجد نفسه وجهاً لوجه أمام اليمين المتطرف، المجاميع المتشددة في الغرب، والفاشية الجديدة، وما يقابلها من تشدد إسلامي.

رواية ساخرة عن الأفكار، الفن، البورنوغرافيا وتناقضات السياسة والدين والواقع.


ISBN 978-88-99687-04-5
9 788899 687045

المتوسط